الفارس المهزوم

قصص

كرم صابر

وعد

الفارس المهزوم

قصص

الفارس المهزوم

مجموعة قصصية

كرم صابر

مجموعة قصصية : الفارس المهزوم
المؤلف: كرم صابر
الطبعة الأولى: 2010
رقم الإيداع: 2010/4315
وعد للنشر والتوزيع
٣ محمد حلمى إبراهيم – متفرع من شارع شامبليون – وسط البلد – القاهرة.
تليفاكس: ٠٢٥٧٤٥٨٧١

كرم صابر: أديب مصرى نشأ فى مدينة الوراق وقت أن كانت قرية يعمل أهلها بالزراعة قبل أن يدمجها الزحف العمرانى بالقاهرة ، وبدأ العمل بالمحاماة عام ١٩٨٩ ؛ نشر العديد من الأعمال السردية منها المتهم وأين الله ورائحة الأنوثة وعشق الحياة وفؤاد المدينة وطائر النسيان ومريم العذراء وكلاب السكك.

طبعة إليكترونية : ٢٠١٥

إهداء

لكل الذين عاشرونا

وتحملوا وجوهنا وأقنعتنا

ولم ينفجروا

"المخادع"

يصحو من النوم كل يوم ويدخل إلى الحمام، يجلس أكثر من خمس دقائق وهو يعمل "زى الناس" ثم يغتسل، وينظر لمرآة الحمام، ويبحلق فى نفسه ويتساءل: من أنا؟

كانت الكوابيس تلاحقه في الليلة الماضية، ومازالت بقاياها تطارده أمام المرآة، كانت الملابس المتسخة تملأ الحمام، ورائحة البول تخرج من ملابس الأولاد وتملأ الارضية بروائح تشبه الروائح التي لم تفارقه طوال الليلة الماضية.

قال لنفسه مرة ثانية: من أنا؟

فاجأه وجه الموت الذي لم يفارقه ليلة الأمس فخلعه سريعًا، ورماه من المنور الممتلئ بالفئران والسحالي والأبراص.

نظر لنفسه في المرآة وابتسم قائلا: اليوم سأجرب وجه جديد، نزعه برفق من حضانة الوجوه التى يخبئها بفخذ قدميه؟ ثم أحكم إغلاقها مرة أخرى، ونظر لنفسه مرة ثانية فخورا ... كان الوجه الجديد حنونًا.

نادى على الأولاد كي يستيقظوا ويذهبوا للمدرسة، كانت زوجته المرتابة منه دائمًا تعلم أن زوجها بألف وجه، ويستطيع أن يضع وجهًا جديدًا في أى وقت، وبكفاءة كبيرة يتقن اي دور، وعلمت من نبرة صوته صباح اليوم أنه تقمص وجه الأب الحنون.

قامت فزعة، وقالت: بالراحه شوية، العيال هتتسرع من صوتك، طبطب عليها، ودخل المطبخ ليغلي اللبن، وتركها ليستكمل مهمته.

كانت رائحة اللبن المغلي تذكره بمشهد الليلة الفائتة، وهو يراوغ صديقه ليحرمه من الحب، كان يلبس وجه المقامر، كان صديقه الذى أتعبه الحوار يرغب فى الاستمتاع بالأمان، وفجأة انفعل، وصرخ فيه: ألا تصدقني؟ لم أخنك.. ألا تصدقنى؟ لكنه المخادع سكب في وجهه البلادة، وقال: لا أصدقك.

انفجر صديقه: فى ستين داهية، احرمنى منك، أنت لم تحبني قط، واستخدمتنى طوال الوقت، وتركتني أحلم بأنك طيب ومتسامح.. لكني اكتشفت أنك مجرم، ولا يهمك إلا مصالحك

المرفوعة على جثثنا، كان صديقه يحمل كوب شاى مغلياً فقذفه فى وجهه، وكانت رائحته بعد أن ابتلت ملابسه مثل رائحة اللبن المغلي الذي تعب من التقليب.

انفجرت زوجته؛ وقالت: اللبن اتحرق، كفاية كده العيال هتتأخر.

أسرع بصب اللبن والشاى والسكر فى أكوابهم الخاصة، وصب لنفسه اللبن الحليب الصافى، وخرج للأولاد بصينية فضية نظيفة .

كانوا مستائين لأن رائحة اللبن المحروق تزكم أنوفهم ، قال لهم: معلهش اشربوه النهاردة ومن بكرة ماما هى اللى هتغليه.

شربوا متضررين وخرجوا من الشقة مع أمهم التى ودعتهم قرب نهاية الشارع لتذهب لعملها بالمدرسة كي تعلم الأولاد الألوان والحب بينما نظر أبناؤها إليها حزانى ويلومنها على تركها والدهم ذى الألف وجه يقوم بعمل وجبة الإفطار.

دخل من البلكونة سعيداً بعد أن نظر إليهم وهم يغادرون الشارع وعاد لحجرته يلبس بنطلونه وقميصه الذى يدلل على وجهه الأب الجديد.

قال لنفسه: إن ألوان القمصان الفاتحة تذكرنى بأمينة التى ترافقنى بالعمل وتحاول جاهدة أن تفهمنى بمزيد من الإخلاص والهدايا، تتفانى للتقرب منى، وتحاول بكل اقتحامي، كان وجهى في اول لقاء يدل على الأمان، فدخلت غير واعية بقلبى وتاهت، وفى آخر يوم قابلتنى وهى تحاول الخروج سليمة من غرف قلبى الكثيرة اقتربت منى ومزقت قميصى وقالت بصوت أفزع الجميع... من أنت؟

لكنه ابتسم وقال فى ود: أنا حبيبك، كانت نبرة صوته تطاردها، فأمسكت بكوب القهوة الساخن الذى كان أمامه وقذفته فى وجهه، لكن القهوة التى بللت ملابسه أخرجت روائح مشبعة شبيهة برائحة الصنن التى تخرج من حمام شقته بعد أن قذف أبناؤها الثلاثة بملابس نومهم التى يبللونها كل يوم رغم أن أعمارهم تجاوزت العاشرة.

استكمل ملابسه وسأل نفسه وهو ينظر للمرآة: كم وجهاً أملك، كم شخصاً استطعت أن أخدعه؟ كم شخصاً صدقنى ولم يستطع الرجوع مرة أخرى لحمام منزله ليتشمم رائحة بول أمه وأبنائه وأخواته؟ كم شخصاً صدق كذبى بعد أن تمكنت من قذفه بسهام الحب ليتوقف قلبه عن النبض وينحنى فى الميدان نحو الطريق التى رسمته له ولن يعود منه أبداً؟

ترجل بهدوء على درجات السلم وقابل جاره الذى لم ير وجهه ولا مرة واحدة رغم أنه يسكن بجواره منذ أكثر من خمسة عشر عاماً، صمم جاره هذه المرة على إيقافه وقال: صباح الخير يا أستاذ سعيد، كنت عايز أشتكى لك من المدام، لأننى منذ يومين طلبت منها أن تغلق حنفية المياه حتى ننتهى من إصلاح الماتور، فصرخت فى وجهى قائل: " آمال هطبخ واغسل إزاى "، حاولت الأعتذر عن انفعالها غير المقصود، لكنه رمقنى وقال وأنا أودعه: إبقى قول للمدام بتاعتك تحترم جيرانها إحنا مش شغالين عندكو.

"دور الحب"

ابتسم العامل وحياه حين دخل مكتبه وقال: دقيقة واحدة والقهوة هتبقى عندك، لم يتوقع أن تدخل عليه لتطارده مع بداية اليوم، كان حتى الأمس يلاطفها ويقول أجمل الكلمات كى تعمل بحب أكثر من عشر ساعات، ولما طالبته أن يأخذها فى نزهة حتى شارع الأمل لتستمتع بهواء الشارع، قال: لا أستطيع.

انبهرت، فكيف لمخلوق على وجه الأرض أن يرفض الخروج معها، علم وقتها انها بلعت الطعم بعد أن لدغها فى الجانب الأيمن من قلبها، كان مشهد الرفض بسيطاً وهادئاً.

تذكرت البنت اقتحامه حين اقتربت وهى مملوءة أنوثة منه، كانت عينها يشع منها رحيق الرغبة ويديها ترتعشان، لم يكن بالمكتب سواهما بعد رحيل كل العاملين، أغلقت باب المكتب، كانت تتوقع أن يأخذها بحضنه ويدفئ يديها الباردتين.

قالت باسي: محدش معانا فى المكتب ممكن تبطل شغل وتسمعنى، قام من فوق الكرسى واقترب ليدخل بدائرتها التى رسمتها حولهما، انتفض قلبه ونظر لعيونها ولامس بهدوء حلماتها، انهارت ولامست خدوده بشفتيها، وفعل ما أمرته به، تحسس جسدها الناعم حتى ذابت، أنزل يديه بطيئاً لأردافها، ولامس ليتها داخل بنطلونها القطيفة ، قالت: من أنت لتمتلك كل هذا الدفء.

أخذها على كنبة الأنتريه، وجلس بجوارها يعلمها، كيف يمكن لقلبه حماية براءتها، خلعت ملابسها دون أن تدرى وهو يفتح أزرار قميصها، ارتعشت وهى تبنى معه بيتاً يعيشان فيه وحدهما وينجبان ولدان، وحين تأتى أمها لزيارتها تجد رائحتها المملوءة أنوثة تملأ البيت، وعندما تطلب الرحيل فى نهاية اليوم تقول لها: لا يمكن أن تغادرى قبل ان يحضر حبيبي، وحين يعود من عمله يأخذها فى حضنه أمام أمها، ويتعطف عليها لتبيت عندهم، وحين تنتهى السهرة وتنام أمها والأولاد، تدخل لحجرتهما المملوءة بالورود وتشع ألوانها بهجة فيعاشرها ثلاث ساعات متواصلة وهى تحته وفوقه تذوب نشوة، وحين انتهت من قذفها المتواصل، نظرت حولها، فوجدت نفسها على كنبة الأنتريه بالمكتب، والساعة اقتربت من الثانية عشرة، طلبت الرحيل حتى لا يقلق عليها والدها، فأسرعا ولبس ملابسهما بعد اغتسالهما، وخرجوا من المكتب منتشين، كانت قد حلمت بالأمس بأنها سوف تعاشره دون أن تندم لأنها أحست كما شعرت اليوم بأنه يعشق رائحتها، وحين اقترب من الشارع الذى تقطن فيه ورأى منزلها أنزلها من سيارته وودعها دون تقبيل، وعلى أقرب مقهى ركن سيارته ونزل.

جلس وحيداً بعد أن طلب شيشة وشاياً من القهوجى، المشاهد والتأوهات ورائحة الإفرازت التى ملأت الحجرة منذ عدة ساعات تفوح من ملابسه وجسمه، ومع ذلك قرر اليوم معاشرة زوجته.

فكر في ابتداع كذبة يسعد بها زوجته فتشفق عليه وتسمح بمعاشرتها، ركب سيارته وانحنى سريعاً بالشوارع حتى وقف أمام منزله، أغلق السيارة وسار باتجاه الباب دون أن يسلم على القهوجى أو الحداد اللذين كان يغلقان ورشهما ، طلع السلم وهو يبحث عن وجه يقنع زوجته بإخلاصه، كان حائراً لأن عشرات الوجوه التى يخبئها فى الحضانة بفخذه طلبت منه أن يلبسها لأنها الملائمة، كانوا يتنافسون ويتصارعون، وحين أدخل مفتاح الشقة تذكر وجه الزوج المكافح ، لبسه سريعاً ودخل الشقة واستقبلته رائحة البول التى تفوح من الحمام، لم يهتم وأغلق أنفه، وبحث عنها فوجدها نائمة مهدودة بعد تعب النهار، خلع ملابسه كلها ودخل بجوارها على السرير، نادى على الزوج المكافح فأحست به وقالت: " اتأخرت كده ليه ، لم يرد، ولامس شعرها وجردها من ملابسها فظهر ثديها ممتلئاً، أخذ سريعاً رحيق صديقته ووضعه فى قلبها، فابتهجت وخلعت باقى ملابسها، وتركته يرقد فوقها وهى تحلم بمعاشرة مدير المؤسسة التى تعمل بها، والذى كان يستمتع بها وتستمع به فى حجرة مكتبه منذ عدة ساعات، حين قذفت من النشوة ، شعرت بزوجها، وهو ايضا فوجئ بها ، قالت : ايه اللى أخرك النهاردة، لم يرد، ثم قال بعد انتظار: سبينى أنام أنا مهدود.

"القناع"

تذكر بعد أن تاه فى الطرق الكثيرة ... أنه كان يعشق الضحك والبهجة والحياة، كانت أبواب البيوت والشبابيك الملونة تنادى عليه، فينظر خلفها ليرى جلسات السمر وقزقزة اللب وتجمع الأهل حول مائدة الطعام.

يبحث طوال الوقت عن شئ يثق بأنه سوف يعثر عليه، شئ لم يعرف أبداً وصفه، لكنه كان جميلاً، لأن بحثه طوال الثلاثين عاماً الماضية أدخله بيوتاً كثيرة وعاشر بشراً اغراب، فمن عوالم البصاصين والقوادين وموزعى المخدرات إلى عوالم البيزنس وصناع النجوم، قابل الهوانم والعربجيات... هل يتذكرهم الان.

يحاول اليوم أن يفهم عن ماذا يبحث، لماذا يصر هذه المرة ان يجيب، أيوقف حياته ليجيب عن السؤال الحائر، ما الذى جعله يتسمر فى مكانه... كيف استطاعوا أن يجعلوه يتوقف عن الانفعال بحكاوى الجيران... كيف تبلد إحساسه.

كانوا يدربونه على تفهم الوضع الجديد ليغرسوا فيه الاستسلام، كان يعلم أن أية مشكلة تقابله سيخرج منها منتصراً، ويبحث عن المشكلات ليتحدى الكون والقيم والناس ونفسه، ليثبت أن ما يبحث عنه ويحتاجه أهم منهم جميعاً، وبعد التدريبات العسيرة حول أهمية الذهب للخبز والموت مستوراً أصبح لا يلعب إلا الطاولة ولا تهمه النتيجة .

يتذكر كيف لعب كل الأدوار بإتقان، ثلاثين عاماً وهو يحاول الإجابة عن السؤال الذى جعله يطرق كل الأبواب؟ عن ماذا كان يبحث؟ هل كان يخدع نفسه كى يستكمل الرحلة؟ هل فقد كل أقنعته التى أتقن لبسها وتمثيل أدوارها مرة واحدة فتوقف عن الاستمرار؟

أى قناع أحبه وعاشره بحب وعبر عن حقيقته وتعاطف معه وأحبه الناس؟ هل النساء اللاتى عاشرهن وأحسوا بهم يتذكرون شيئاً سوى غدره؟ ... هل الناس الذين قدم لهم المساعدة يتذكرون شيء سوى سرقة جهودهم وأفكارهم؟

كان يخبئ الأقنعة الكثيرة بين ضلوعه وحين تأتيه الرياح يلبس القناع الجديد فى خفة، ويتباهى بسرعة بديهته التى لازمته دائماً طوال الرحلة، كان كالنسر يلبس القناع الملائم للموقف دون أن يرآه أحد ... خدع الجميع ولا يدرى فى النهاية من يكون!!

"الطريق السرى"

يستطيع الملاوع أن يجعلك تقبل وضعك برضا، يأخذك من الحمام ويخرج بك إلى الشارع، وهناك فى ميدان واسع يتركك فتبحث عنه، وحين تيأس من وجوده وتفقد الرغبة بسبب التعب الذى حل عليك تحاول العودة للحمام مرة أخرى، لكنك لا تعرف سكة الرجوع فتقبل العيش بالميدان دون هوية.

فى البداية يلبس لك قناع الحب، لتثق فيه، فتمشى وراءه وتلهث لتلحقه، فهو الذى يعرف الطريق، وتصعد معه درجة درجة، حتى تصل إلى مكان لا تعرف ملامحه، لكنه مكان مختلف وجميل، وحين يحس بأنك وصلت لهذا الفهم يتركك دون أن يرشدك، ويسألك أى طريق يجب أن تختار، ولأنك لا تعرف ماذا تخبئ الطرق المختلفة التى تبدأ من الميدان، تقف وتتساءل أين أنا؟ ولا يتركك المارة والسيارات والباعة فى حالك، فيقذفونك بالطوب حتى تفيق، وتجد نفسك مكوماً بأحد الأركان تبحث عن لقمة العيش وتنسى الحمام الذى كنت تستحم فيه، وتستمتع بالجلوس فيه وحدك.

كانت تجربتى مختلفة، فقد حاولت اكتشاف الطريق الذى مشينا فيه، كان يتضايق من كثرة أسئلتى.... من هذا البائع؟ ماذا يبيع هذا المحل؟ ولماذا يضع فوق يافطته هذا الرمز؟ عن ماذا يشير القهوجى؟ ولماذا يتكلم البقال لغة مختلفة عن الطعمجى والمكوجى؟

كان يقول: لا يهم كل هذه التفاصيل فلابد أن نصل فى الموعد المحدد للميدان حتى لا تفوتنا سيارة النجاة.

دون أن يدرى كنت أفهم معنى العلاقات التى يقيمها أثناء حواراته طوال الطريق، فهذا جراج للشمامين، بعده تقع بيوت السكارى الذين كانوا يلبسون الأحذية دون رابطة العنق، حفظت عن ظهر قلب كل الطرق، عرفت مساحة الحوارى والشوارع وحجم البنايات المختلفة بطريقة أذهلته حين تركنى لأعود للحمام مرة أخرى.

لكن الشئ المزعج حين دخلت الحمام لأبحث عن أقنعتى تحت البلاطات القليلة التى تغطى أرضيته، لم أجدها، اختفت... فأين هى ومن سرقها؟

أمسكت برقبة زوجتى... من خلع بلاط الأقنعة، ذكرتها بأننى كنت أضعهم تحت رف خشبى فوق البلاطة الأخيرة، وكتبت عليه سرى جداً، هل جاء أحد من أهلى هنا ودخل الحمام

فى غفلة منكم وسرق أقنعتى... هل استضفتى أحد الجيران وغافلكم ودخل الحمام ونهب أقنعتى؟ هل السباك جاء فى غيبتى وكسر البلاط وألقى بأقنعتى في الزبالة؟ الشئ المحير أنه لا كسور بالحمام حتى الدولاب الخشبى الذى كتبت عليه "سرى جداً" كان دون كسور، لكن داخله فارغ، صرخت: أين أقنعتى.

لكنه أتانى فجأة، وقال: عما تبحث، قلت: أين وجوهى، ضحك عن آخره وقال لقد وزعتها على المارة وأصحاب الدكاكين وأنت عائد من الميدان، هل نسيت النساء اللاتى عاشرتهن والأموال التى سلبتها عنوة من الناس ، لقد سمحوا بجرائمك مقابل أقنعتك.

لم أكن أصدق كذبه فهو المخادع، وهل يعقل أن يقول الحقيقة، ولكن أين ذهبت أقنعتى إن لم تكن سرقت خاصة أن باب الدولاب الخشبى لم يخدش، ومفاتيحه مازالت معى، ولم أعطِ لأحد نسخة منها أبداً، حين خرجت للشارع بعد أن أعيتنى الأسئلة، قابلنى الناس باندهاش، لم يعرفوننى وسألونى من أنت... ولماذا تركت الميدان وعدت وحيداً إلى حمامك، وسألونى: أين ذهب المخادع؟

"التحول"

يرافقنا فى الأحلام بطلعته البهية، وحين ينزل من البيت كان الشارع يبتهج، كيف خطفوا النور من عينيه وقذفوا به فى بركة بعيدة بعد سرقة شعاع عينيه التى أضاءت لنا الطريق؟

سألت نفسى عن مغزى العلاقات التى تمتلئ بالبهجة، وفجأة ودون مقدمات يقتحمها الظلام، حين قابلنى أول مرة كنت أحس أنه مؤمن بكل ما أقوله، لم يكن يستطيع أن يمر فى أية حارة أو يأخذ قراراً يخص حياته دون سؤالى: ايه رأيك؟

لم أكن أقول شيئاً جديداً، كنت أسأله: إنت عايز إيه، لأردده كلامه كأنه رأيى، آلاف القرارات التي تخص أهله وزوجته وعمله وجيرانه ومشاعره كانت تنتظرنى لأقول له ماذا يفعل، لم يستطع وحده اخذ قرار، إلا قبل سماع رأيِي، لدرجة أن نظرة غريبة، تلقاها من أحد المارة تجعله يأتينى مسرعاً محاولاً فهم مغزاها.

أسعدتنى طريقته واعتبرته رفيق روحى... وفجأة وبدون مقدمات تحولت كل هذه المودة والحب والرقة والصراحة إلى غل وحقد.

هل كان مؤمناً حقاً بي ولانني حين خذلته مرة واحدة وأخفيت رأيى وامتنعت عن إبدائه ولم يتمكن من أخذ قراره بنفسه، تحول إيمانه وأبتعد عنى وهو يبغضنى.

أكلما جاءت سيرتى الآن أو تذكرنى بخياله يكره نفسه، كيف استطعنا الانسجام وهو يرافقنى ويخلقنى من جديد بثقته لقولي الحقيقة؟ كيف تعارضت مصالحنا فجأة وأصبحت موضوع الشك الوحيد فى حياته.

هل تتذكر بدايات العلاقة والتى كان يغار منها ويندهش كل من يعرفنا ويتساءل: ماذا يربطكم، هل تعاشرون بعضكم ، هل أنتم شخص واحد؟

حين قابلته أول مرة سحرته بروحى والتصق بى ليستمد حياته من وجودي، واستمر الحال عشرين عاما، لم ينم فيهم يوماً قبل أن يرانى أو يتصل ويسألنى: عامل إيه، وأطمئن عليه وأطمئنه على ما بيننا وعلى نفسه، فينام دون أحلام مزعجة أو كوابيس.

كان قرار ترك منزل والده والزواج بسمية والعمل بالمدرسة الثانوية معلماً للرسم والكثير من قراراته المهمة والتافهة تنتظرنى لأقول الكلمة الأخيرة لدرجة أن زوجته حين ولدت له بنتاً جميلة أصر على أن يسمع رأيى فى اسمها، "جنات".

قلت من اختار الاسم، قال أمها، فقلت: وأنت رأيك إيه، قال: اسم جميل.

قلت: على بركة الله يا "أبو جنات".

كان مرعوباً أن أقول له رأياً آخر، فيتشاجر هو وزوجته لأنه كان سيأخذ برأيى.

حين اختلف مع زوجته على لون باب شقتهم وكان خلافهما سيصل للانفصال، استدعانى وقال تريد أن يكون باب الشقة أبيض... هل تصدق ذلك؟

قلت له يا صديقى هل سيفرق معك لون باب الشقة، فقال لا... ولكن... قلت يا سيدى المهم اللى جوه الشقة، هدأت روحه، كأننى قلت له كل الحكمة، استأذن منى واتصل بسمية وقال لها اختارى اللون اللى إنت عايزاه... أبيض، أبيض.

الشئ العجيب أن يفاجئنى فى صباح يوم شتوى بوجوده أمام باب شقتى ويطالبنى بالنقود التى سرقتها منه ليلة الأمس، قلت ادخل يا عزيز فلوس إيه وسرقة إيه، ادخل يا أبو جنات الدنيا برد، صرخ فى وجهى، وقال... يا حرامى يا سارق قوتى وقوت عيالى، عشرين سنة تسرق جهدى وتعبى وجعلتنى حمارتك التى تركبها وقتما تشاء، والناس جميعاً تسخر منى وتقول: يا ديل الكلب... لماذا جعلتنى كذلك، قلت فيه إيه يا أبو جنات، إيه اللى بتقوله ده، بكى وقال حرام عليك، عايز تعب العشرين سنه.

كان يصرخ: أين عزتى، كرامتى، إخلاصى؟ لم أفهم فى البداية لماذا كانت حرقته كبيرة، كنت كالأبلة أتساءل: ماذا حدث وأسأل المحيطين بنا لماذا يفعل ذلك؟

كان الجميع يتعاطفون معه رغم أنى لم أؤذيه، كنت أحبه، ولم أسمح لأحد أن يتطاول عليه فى حضورى، وأى جهد وأموال سرقتها منه، وهل أعطانى طوال هذه العشرة الطيبة أية أموال، الشئ المذهل أننى كنت أتساءل فى بلاهة، وكأننى لا أفهم ما حدث، والناس جميعاً تتعاطف معه وتقول: معلهش يا عزيز إنت غلبان وطيب سيبك منه بقى، ده مجرم.

رغم تقبلى الوضع الجديد بدهشة، إلا أننى لم أفهم ماذا حدث، كيف استطاع أن يتحول صديقى الوديع الطيب الرقيق لهذا الشخص القاسى الذى يطالبنى الان بثمن العشرة.

كنت أسأل نفسى... من حوله لهذا الشخص المهلهل وأفقده توازنه، من سلبه إيمانه وطيبته ومشاعره، الشئ المؤكد أن أحداً غيرى فعل ذلك، ولن أهدأ إلا إذا عرفت هذا الشخص القاسى المجرم الذى يحول الأشخاص من طيبين إلى اوغاد.

"للحقيقة وجوه متعددة"

عندما ودعنى عند باب الشقة قال: للحقيقة وجوه كثيرة، أذهلتنى الحكمة البسيطة، دخلت الحمام بعد إغلاق باب الشقة أبحث بين ضلوعى عن الوجوه الكثيرة... وسألت قلبى كى يجيبنى، فمن أكون إذا كنت شخصاً آخر يلبس قناعى، قررت وقتها أننى سأعثر على هذا الوجه إن عاجلاً أو آجلاً، وقلت لقلبى جرب وجوه الحب اوالسلطة اوالمال، ثلاثة وجوه لو نجحت فى الدخول لاختبارهم ونجوت بنفسك ستصبح أنت وجه الحقيقة.

اتكئ مخلص على منضدة السرير وقال لنفسه هل يمكن للمال أن يغير طبيعتى ، هل للنساء أن تبدل مشاعرى، هل للسلطة والنفوذ أن تفقدنى نفسى.

صرخ من قلبه: أنت أقوى من تلك الإغراءات ومستعد طوال الوقت للمغامرة والدخول فى التحدى، لكن بعد مرور عشرات السنين عاد يسأل نفسه: ما علاقة هذه الوجوه المتعددة بحقيقته؟

قرر قبل نومه أنه أقوى من كل وجوههم، لكن الكلمة الأخيرة التى تركها له صديقه عند الباب أفزعته، خاصة بعدما قال صديق آخر بالتليفون: مخلص ألف مبروك الوزارة رشحتك لمنصب الأمين العام.

ذهل وقال مش معقول وكيف تم ذلك أنا موظف صغير بالجهاز وليس عندى أية خبرات، فقط أتقن عملى، فكيف قاموا بذلك؟ إنه منصب كبير علىَّ، وأغلق صديقه التليفون مهنئاً وهو يقول له: "مبروك يا مخلص بيه".

وفى اليوم الأخير الذى أقيل من منصبه تذكر وجوه الحقيقة المتعددة، حين كان يعاشر النساء اللاتى كن يتأفف منه، كانوا يتزينون قبل أن يقابلوه ويضعون أغلى الروائح كالفراشات، ويتباهون بمضاجعته، الآن بعد إقالته من المنصب ينظرون إليه بتجاهل كأنه نكرة.

كيف استطاع بنفوذه أن يدوس الكل، كان وجوده فى أية مشكلة كفيل بأن يطوع القانون حسب رغباته وطلباته... لم يقل له أى موظف حكومى "مقدرش يا أفندم"، كما قالها له بالأمس أصغر موظف بالجهاز بعد أن عرف قرار إقالته.

كان يشترى ذمم الموظفين بالعطايا ويقذف بتاريخ الشرف فى المذبلة بنفوذه، حين قابله أول الأمس أحد الضباط بالقسم والذى استدعاه لمكتبه بعد أن عرف خبر إقالته من الجهاز، قال له بكل ثقة: معلهش يا مخلص بيه فيه قانون فى البلد، كان الجميع يعرف أن قرار إقالته من

المنصب هو الحقيقة الوحيدة التى ظل يتجاهلها طوال الأسبوع الفائت، واستطاع طوال ثلاث سنوات أن يرى وجوه الحقيقة الثلاثة، لكنه مع ذلك لم يفهم حقيقته التى كان يعرفها الجميع.

"لون العيون"

اشتاقوا كثيراً لعيونه العسلية التى تشع نوراً، كان يعلم ذلك فارتدى نفس الألوان التى شاهدوه يلبسها أول مرة، ودخل عليهم فانبهروا وقالوا: كيف استطعت أن تدخل ضوءك فى قلوبنا كل هذه السنين؟

يمشى فاقداً الإحساس بالزمان والمكان ويتجاهل عيون المجرمين الذين استطاعوا بكل قسوتهم ان يخرجوا من الجحور كل الثعابين كى تحيط به وتعاشره، وبعد نجاته من لدغاتهم وقف شامخاً وهم مذهولون بألوان ملابسه الكحلى التى لم تتغير.

كيف استطاع أن يجتاز كل هذه المسافة وحده ويتفادى سمومهم ليسبقهم جميعاً الي نهاية الممر؟ حين قابله البطل المزيف الذى يملك النفوذ والمال أخذه فى حضنه وقال إنت الذى تملك التعاويذ والسحر، كيف استطعت وحدك أن تجعلنا ننام كل هذه السنين حتى تفجرت علماً وحباً دون رغبتنا؟

لكنه تجاهل أصواتهم ولم ينظر إليهم وحدق بقلوبهم فوجدها خاوية، لم يكن فيها أية دلالة على الحب، انفجر فيهم وهم فاقدون للإحساس بالمساحة التى ينزعها منهم حتى أخرجهم من قلبه دون أن يشعر بأية لحظة ندم.

كانوا مندهشين من ألوان الكحلى التى يرتديها لتملأ وجهه وعيونه بالدهشة، ويتساءلون كيف استطاع المحافظة على كل هذه الخيوط متشابكة؟ كان يزرع الموانئ البعيدة بعد ترك قلبه هناك بجوارهم غير عابئ بمشاعرهم، حاولوا فعصه، لكن بقبضة قوية مبهجة منه استطاع أن يفلت منهم، أصابهم الذهول مرة أخرى وهو يفر بعد امتلئ الحجرة برائحة ملابسه، فأغشت عيونهم، وباتوا لا يفرقون بين جوده وغيابه، اليوم بعد أن فر وتركهم هناك وسط الثعابين، يتذكر كيف استطاع أن يخدعهم ويلبس كل هذه الألوان ويغير لون عينه كل دقيقه دون أن يلمحوه لكنه عاد الان لا يعرف لون عينية الحقيقية.

"المحايد"

انتشرت شهرته فى قدرته الخارقة على التنسيق بين المتخاصمين، يبتدع الحيل ويختفى مع الطبيعة ليعود بعدها متحدثاً بلغة لم أفهمها أبداً، ويلقيها علي المتخاصمين فيقبلون فى صمت، ويهمسمستكملا: ليس أمامكم حل إلا ما أطرحه، الاستمرار فى الحياة والعمل معاً رغم كل الحقد والغيرة بينكم"، ماذا كانت تقول الطبيعة كى يتحلى بكل هذه المعانى التى تدهشنا وتجعلنا نصمت حين يلقى الحل الأوحد.

فى الليلة الماضية جلست أمامه على الترابيزة، بحلقت بوجهي كرمشات حول وجهه وعيونه وأنفه ليقول من خلف نظارته: لن تفهم ما حدث، يجب أن تجلس وحيداً تتأمل الحقد والكره وهما يتسللان إلى قلبك بعد مرورك بأحداث مأساوية، لم تنصفك الدنيا، بعدها تقبل هزيمتك بحب وتفهم لغة الطبيعة التى تلبى ندائى دائماً وتأتى بالحل الأوحد، كنت أقول: أنت خبير بالحلول فكيف تقبل أن ينتصر عليك شريكك ويأخذ نصيبك من الجهد والعرق ، ويتباهى وسط الخلق بأنك كنت مجرد لص، ولم يذكر أبداً فضلك عليه، كان ينظر بأنفه المعقوف ويقول بثقة: أنت لا تفهم ما يحدث؟

تركته سالت نفسى: ما الذى حدث لنترك بصمات قلبنا التى وضعناها على الأشياء ليسرقها الآخرون وينسبون حياتنا لأنفسهم ؟ كلمة واحدة أتذكرها قالها دون أن يدرى: الطوفان.. ماذا حل به كى يترك نفسه لهذا الطوفان، لماذا فقدت الحوائط والأرضيات والأبواب والشبابيك الذاكرة حتى أنها لم تعد تتعرف عليه، فى اليوم الأخير رفض الاعتراف بفضلك عليه وتركته بهزيمته دون أن تسانده أو تذكر لناكر الجميل أيام العشرة الطويلة.

كنت مندهشاً لموقفه الغريب وأسأل نفسى ماذا يكسب صديقى الخبير الذى يعطى الحل الأوحد لأى شخص يسأله؟ خاصة بعد أن سلبوه غرفته التى كان يجلس فيها على كرسى مكتبه شامخاً ليقول لهم كلمته الأخيرة.. ومن أى مكان آخر سيطرح حلوله الفاصلة؟

هل يعيش وحده دون أن يدرى بأن هذه الوجوه التى يرتديها تفضحه، ومع ذلك حين يسأله الآخرون يفاجئهم بحقيقتهم دون مواربة، كيف يتعامل مع زوجته وأبنائه.. هل يصرخ فيهم أم يحن عليهم؟ كيف يقابل جيرانه وأهله؟ هل يحترمونه أم يسخرون منه؟

هل خسر الخبير الذى يملك الحل الأوحد كل شئ.. هل كان يملك مثلنا أى مشاعر للحب أو للكره، كيف تمكن من السيطرة على حياده حتى النهاية ليبقى دون إحباطات أو أمل، كيف

استمتع بهذا الدور الذى أكسبه شهرة ومجداً وسط الناس رغم أنه لم يمر بعلاقة سرية مع امرأة لعوب جعلت زوجته تغير عليه أو تغادر منزله دون رجعة أو جعلت ابنه الكبير يشهر سكينه فى وجه الأهل دفاعاً عن سمعة والده، كيف استطاع أن يلبس كل هذه الأقنعة ليعترف فى النهاية بأنه المحايد.

"الخائن"

طوال المدة الفائتة حاول دون وعى أن يهرب، شحذ كل طاقاته نحو الهدف، سوف يمر دون مواجهة، فهو لا يريد الإعلان عن موقفه.. لكن الحياة الملعونة لن تنتهى قبل أن يعلن كل منا ، ماذا يريد أو يحب، ثلاثون عاماً وهو يرفض جاهداً الإعلان عن نفسه، كانت ردوده دائماً سأحاول.. سأفكر.. مش عارف.. يمكن.

حين أتى الجنود أمام باب شقته، ليعلنوا فى وضوح النهار، بأن عليه ترك شقته والعيش بالشارع، ليواجهه الجميع، تحت مبرر أن أهالى الحى لا يتحملون أنصاف المواقف، صرخ وهو البالغ من العمر خمسين عاماً، كيف لهم بعد كل هذا العمر أن يضعونى فى هذا التحدى، لم يكن لدى الجنود وقت، فقذفوه بملابسه الداخلية للشارع ليتفرج الناس علي عريه، ويبحثون عن إجابة.. ماذا حدث كى يخرجوك عارٍ للشارع؟ لم يعطوه الفرصة ليجيب، كانوا يجيبون بطريقتهم الخاصة.. أطردته زوجته.. أخان أهله.. أسرق أموالاً حكومية.. دائماً وأبداً النساء.. المال.. السلطة.

جلس قرب الميدان بجوار الحائط ونام، تذكر لحظه دخوله شقته كل ليلة إغلاقه الباب بمفتاحه ذى السنون العشرة، وإحساسه المريب بأنه لا أمان فيمكن للبوليس أن يكسر الباب فى أى وقت ويقبض عليه، خمسون عاماً لم يتغير إحساسه عند غلق باب شقته.

كانت عساكر البلدية فوق رأسه توقظه بأقدامها وأحذيتها وتصرخ دون رحمة "قوم يا عرص.. قوم يا رمه".

قال الضابط: "منظرك يشوه الميدان"، وفى خفة لطخته أيادى الأمناء، و سمع ألفاظاً لم يتخيل أبداً أن توجه إليه، أسرع هارباً، واقترب من مدخل المسجد فلمحه الشيخ فقام مفزوعاً وطرده قائلاً: ابعد يا شيطان يا نجس.

أين يذهب.. ومن يكون ذلك الشخص الذى اخلص له طوال هذا العمر، ويرفض الان الاعتراف به أو مسامحته.. وكيف استطاع أن يعرفوا موقفه رغم أنه أبداً لم يعلن عنه؟ اليوم تلفظه الميادين وبيوت الله، ويتندر جيرانه وأهله عليه، بالرغم من أنه طوال الخمسين عاماً لم يقم بعمل شئ سوى مقاومة إغراءات الحياة الملعونة، حاول ألا يمر من كل الممرات التى رسموها له حتى لا يلوث هواءهم.

كـان وقوفـه وحيـد وعـدم مـروره فـى الطـرق التـى مـرو بهـا كافيـاً ليتركـوه ويغادرونـه للأبـد، واستحق بموقفه المستقل أن يكون بحق الصديق الخائن، الآن عرف، لماذا لم يكن مفتاح شقته الذى كان يغلقه كل يوم بإحكام غير كاف للأمان.

"لحظة"

اقتربت ارواحنا أثناء مهمتنا المشتركة في تحرير القيود، وبعد تجاوز الأزمة، أصبحت بدون عمل أو دور، فقال: يمكن أن تعمل بشركتى، هل توافق، لكنى لم أفهم وضعى الجديد إلا بعد ذهابى للعمل ولبس الأفرول الأزرق الخاص بمهنتى الجديدة.

استقبله فى الصباح، وهو ينزل من سيارته الليموزين، فيبتعد ويصرح في السائق ويقول على استحياء: صباح الخير يا حافظ .

أحسست وقتها أنه ليس صديقى، فخلعت ملابسى ونزلت للشارع أبحث عن نفسى.

"صباح"

وجه صباح المحامية حين قابلتها أول يوم بمكتب الأب الروحى ينبئ بالاستكانة، كانت تتحدث من تحت نظارتها بصوت غير مسموع، وكأنها كتلة من الخبث، كانت تحتفظ بالملفات بدرج مكتبها، وتعيد ترتيبها كل دقيقة، وتنظر إلى أسماء موكليها وأسماء الخصوم وتقول: "بكره هكسب القضايا وهأخذ فلوس كتير".

حين تشاهد الأب الروحى تجرى وراءه، وتحاول أن تتلمس يده لتستمد البركة، كانت تبلغ من العمر أكثر من أربعين عاماً، وكنت أتصور أن هناك سدوداً وجسوراً بينها وبين هواء الحرية، كيف استطاعت رغم مرور كل هذه السنين أن تفضح نفسها دون أن تدرى وهى تقول: "أيوه يا باشا... أأمر... عايز حاجة"، كان يشفق عليها ويقرف من طريقتها فى المداهنة.

انشغلت بأسئلة عبيطة عن أسباب قيامها بهذه الأدوار التى لم يطلبها أحد، تتهم الجميع فى غير وجود الأب الروحى الجميع بالكذب والنفاق وتردد دائماً تاريخ أبيها فى العمل السرى الذى مات بالمعتقل بعد تبنيه أفكاراً لمساواة الجميع فحرم ابنته الوحيدة من الامان، تشك الان فى كل الأشخاص سوى الأب الروحى صاحب النعمة والمكتب فهو القديس الذى يمن علينا جميعاً بالنعمة.

يأتيها زوجها المناضل السابق بالمكتب، ينظرون لبعضهم نظرات غريبة لم أفهمها حتى الآن، لكنى لم أسمعهم مرة واحدة أو أشاهدهم طوال السنوات الثلاث إن سألته: أين كنت أو لماذا تأخرت أو كنت فين؟ هل كانت تعرف أنه مرمى بالمقر القديم المغلق يناضل كما كان يقول، هل كان يعرف أنها بالمحكمة تدعى الدفاع عن الفقراء، ثم تذهب للمكتب لتغوص بالملفات، وتتمنى انتهاء القضية كى تكسب نسبتها بالحكم لتضعه بدفتر توفيرها كى تدفع مصاريف المدرسة للأولاد.

هل كانت صباح بمنزلها تغير ملابسها ذات الألوان الزيتى والفئرانى والتى لم تغيرها أبداً، هل تغير القناع الذى عرفناها به، هل تأخذ حماماً حين تذهب الى المنزل ثم تجلس فى الصالة تفتح التليفزيون تتفرج على فيلم لإسماعيل ياسين وتضحك مثلنا، هل إذا جاءتها أختها تحلف عليها لتأكل أو تقوم لتطبخ لها خصيصاً أطعم الأكلات، وهل إذا طلبها أحد جيرانها تستجيب، وتطلب منها أن تتحمل الحياة أو تتمرد عليها، هل صباح تحس الان بأى شئ... ومن سرق نور الحب من قلبها؟

تتكلم فى أى موضوع يطرح عليها وتشترك بآرائها العادية بالمناقشات بعنف وتدافع عن أفكار كانت ترفضها بالبداية، ثم تضم شفتيها مع أنفها المعقوف وتضحك من تحت أسنانها، وتقول "هنعمل إيه أهى عيشة والسلام"، هل تحاول أن تهرب من قدرها الذى ابتليت به فالأب مات بالمعتقل، والزوج المناضل السابق بالمقر المغلق لا يهتم، والبيت لا يوجد بمطبخه أى خزين، هل تهرب أم تستميت فى المحافظة على وضعها... هل هذا الدور الكئيب التى تؤديه بإتقان هو الباقى لها؟

كنت أتمنى أن أراها فى يوم ما، وهى محلولة الشعر وتتعطر وتلبس ملابس ملونة ومفتوحة من أعلى صدرها وتدخل علينا بالمكتب لتدهشنا برائحة أنوثتها، لكن طوال السنوات الثلاث لم تحقق لى هذه الأمنية، فتركت المكتب حزين على قبولها باستماتة دورها الكئيب فى الحياة.

"**العصبى**"

الي صديقي سامح عبود

ولِدت الأمسيات المشتركة بمنزله وأنا أراقب والده العجوز الذي يلبس نظارته ويرمق الأثاث بخوف شعور بالرهبة.... كانت الفترات التى قضاها والده محبوساً فى قضية سياسية جعلته لا يتحدث كثيراً إلينا، ينظر إلينا ونحن نجلس ويقول دون همس: بأننى صديق غير جدير بالاحترام، لأن صوت ضحكتى كان خليعًا.

فى المرات القليلة التى قابلت أمه العجوز وهى منحنية على عصاتها كانت تقول لصديقى: الغدا بتاعك فى الثلاجة، ثم تنظر بغضب ناحيتى، وتتركنا بالحجرة دون أن تلتفت.

يبلغ صديقي من العمر ثلاثين عاماً ومع ذلك كان يحب المهلبية برائحة الثوم المنتشر ببلكونات منزلهم.

كنت أذهب لبيتهم بالهرم والذى تمكن والده من بنائه ثلاثة أدوار بعد أن ورث عن والده قطعة أرض كبيرة، فباعها ليبنى هذا البيت وترك بلدتهم وجاء للقاهرة ليعيش وحيداً مع أولاده وزوجته، يعلم الاب مكان كل قشة بالمنزل، ولن يسمح لأحد بأن ينقل أية قطعة أثاث دون استئذانه، رغم أن ابنه صديقى لا يسمع جيداً فكان دائماً يناديه معاتباً: ليه عملت كده... مش قلت لك متحركش حاجة إلا لما تقولى.

أتذكر حين أتيت لمنزلهم زائراً لأول مرة، وطلبت كوب ماء، فقام صديقى وذهب للثلاجة وأحضر زجاجة، وقبل أن أشرب، فوجئت بوالده يأخذها من يدى ، ويذهب، وقبل أن أسأل صديقى، أحضر والده كوب ماء ووضعه أمامى!

حياة هذه الأسرة غريبة، أمه تصرخ ليلاً، وتنادى على أبيها وأمها، ليأتوا ويأخذونها من هذا السجن، أخوه الكبير بعد موت والده ، استولى على أدوار المنزل الثلاثة وترك صديقى ووالدته بالدور الأرضى، دون أن يعترض أحد منهم، أو يسأله لماذا فعل ذلك، لا يندهشون ابدا، وحين حاولت أبدء رأيى فى تصرف أخيه الطماع، نظر إلى بغضب وقال: أنت تعرف أننى أصنج، فلماذا تؤذينى!

يحاول صديقى إخراج طاقته المكبوتة معى على المقاهى، وفى المناقشات الساخنة حول دور الحكومة والفرد، نندمج بالمناقشات ويرفع أحد الناس صوته بعنف فينفعل ويشتم ويخرج

من فمه رذاذاً أبيض، وقتها كنت أنهى المناقشة بلطف، وأستأذن الجميع وأحاول الخروج بجسده بعيداً، فيصر على استكمال المناقشة، ليكتشف الناس أنه مريض، فيتعاطفون معه، ويؤكدون على رأيه، ويقولون بعيونهم وصوتهم العالى كى يسمعهم: أنت صح... إحنا غلط.

حاولت مساعدته ليدخل فى علاقة مع ثناء التى كانت تعمل معنا بالمكتب وتروج لتاريخ أسرتها العريق، وقلت: إنها تحبك ومعجبة بك، وبعد جلستين معها قابلنى وشتمنى بأدب لأنها مجنونة.

كنت أتساءل، لماذا لم يستطع صديقى أن يلبس الأقنعة التى نرتديها جميعاً، كنت أدربه على اقتنائها ولبسها وخلعها وقتما يشاء، لماذا فشلت فى مساعدته ليتساهل ويتأقلم مع خطايانا ويعيش سعيداً، فى آخر مناقشة قال لى: أنا سعيد فلماذا تحاول أزعاجى بخداعك.

أتساءل اليوم هل هذه هى حقيقته التى لم أفهمها، الشئ الوحيد الذى كان يزعجه هو الصوت العالى ومشهد اي عنف لانه يذكره بوالده، فى الأيام الأخيرة، قبل ذهابه للمصحة، قابلته، عاتبنى قائلا: لو استخدمت معى لمرة واحدة وجهك الحقيقى، ما كنت وصلت الي هنا، حاولت اهدائه كل أقنعة الحب والسلطة والنفوذ... حاولت... لكنى فشلت فى فهم براءته .

"حدود الشرف"

استطاع بقوة أن يرفعها بخفة ويسير بها حتى باب الغرفة ليغلقه ويعود على كنبة الأنتريه دون أن يخرجها من جسده، لحظة العشق المتفردة كانت كفيلة بجعله يرفعها دون غلق الباب بالمفتاح، فرد العاشق كنبة الأنتريه لتصبح كالسرير ليناما فوقها ساعتين دون أن ينتبه لأصوات الجيران التى ملأت الشقة همساً.

لم تحس سهير بكل هذه الصخب، اللحظات السعيدة التى عاشتها كفيلة بجعلها تؤمن بصحة القرار الصعب الذى أخذته قبل ساعتين.. لا يهم رأى أحد، لن أفكر بنفس طريقتهم، المهم أن أستمتع.. ازداد هيجانه حين عرف أنها قطعت كل أواصر التي تربطها باهلها، لم تر إلا جسده التى تستمتع بها فامتلكته وذابت.

ترغب فى الشعور بالحرارة التى يمتلئ جسدها بها، قبلتها بصفاء دون دون الشعور بصراخات الجيران، عراها وعرته وكان النور مضاءًا ليكتشفا تفاصيل جسديهما، وضع شفتها السفلى بفمهو حلما بأيام اللؤلؤ والحدائق المملوءة بالورد.

كانت مياه النيل تمر من جوارهم وتمتلئ السفن والمراكب بالوجوه البشوشة، أخذتهما ملائكة الحب من وسط الحدائق لسفينة النشوة وقالت كبيرة الملائكة: نحن حراسكم استمتعوا ومتعونا بأجمل اللحظات لينفجر الحب من جديد، غرقوا فى حرارة قلوبهم التى لم ينسوها أبداً، وحين أعطتهما الملائكة إشارة الحرية، قام بكل فخر من عليها وهو ينظر لنهديها المتفجرتين ليدلل على أنها الوحيدة التى تملك فرجاً بضاً منتشياً دون نساء الأرض، وبيديه الاثنين لامس كل أجزاء جسمها، وعند المناطق الطرية الممتلئة كرر الملامسة، لتصل حرارته لفرجها ليزيدها التهاباً، وقتها شدت بكل قوتها ملابسه وسرواله ليظهر قضيبه فى يديها كأجمل وردة تنتشر رائحة الحياة فى بحر الفل الذى تغرق فيه.

وضع يديه علي جوانب ثديها وتعرف على كل أجزاء جسمها حتى وصل لفرجها فوجده منتفخاً فوضع قضيبه لتتوهج ويتوها وسط الجنة، وحين يرمقهما الحارس يقذفا سوياً، ويصرخا بأعلى صوتهما على الملائكة لبلوغهما لتباركهما آلهة الحب المخلصين لرسالتها.

لكن أصوات الجيران تصرخ على باب الشقة، فقام واغلق الباب بإحكام، وعاد ليكرر مشهد العشق الملائكى، لتخرج رائحة أنوثتها للصالة، لكن الأشرار يكسرون القفل بأقصى ما لديهم من قوة، ليستمتعوا برائحة الأنوثة وهى تخرج من أجسامهما الحرة إلى السماء.

قام فى هدوء وهى تتبعه ولبسا ملابسهما المملوءة نشوة ولم ينظرا إلى وجوههم وخرجا من وسطهم والجيران الذين وقفوا مذهولين من رائحة الحرية التى غادرتهم للأبد.

"محطة المياه"

كيف استطاعوا ان يجعلوا أهل القرية تشرب من برازها وصنانها دون ان يدروا طول ثلاثين عاماً؟ الدورة التى اتبعوها معقدة وتجعلك حائراً متسائلاً مئات المرات دون إجابة من أحد، وتجعلك تفقد البوصلة وتسلب إرادتك وتفكيرك وتتمسك بأى شئ وهمى يقدمونه لك، وتتحمل طعم ورائحة مياه بولك لتشربها دون أن تدرى.

تدخل المياه أجسامنا وهى مليئة بميكروبات وفيروسات عجيبة تشاهدها بكوب المياه وتسمعها هى تقول: لا تخف أدخلنى فى أجهزتك وتعايش معى ليس أمامك مفر!!

قبل البداية أعلنوا بميكروفونات البلدة ان الرجال ستتبرز وتتبول بالترعة القبلية التى كتب عليها حتى يفهم الجميع: "مراحيض الرجال"، أما النساء فقد خصصوا لهم الترعة البحرية الصغيرة وكتبوا على مدخلها: "ممنوع تواجد الرجال"، وبعد ذلك تتجمع بقايا كل البراز ومياه الصنن فى مستنقع كبير أحاطوه بسور خشبى متهالك وكتب عليها بيافطة كبيرة: "محطة تحلية مياه البلد".

بالمحطة فلاتر مستهلكة ومصافٍ لإخراج مياه المجارى مكررة، ثم يتم إدخالها بعد ذلك داخل موتور كبير ليضخها مرة أخرى بمواسير مياه الشرب، فتفتح النساء بالمنازل حنفيات المياه وتتعجب من قدرة الخالق الذى مكن البشرية من تنظيف روثهم وصننهم وجعلهم يشربون منه وهم سعداء بمصيرهم.

شرب النساء والرجال والأطفال المياه عشرات السنين وتحللت بداخلهم وتعايشت دمعهم الفيروسات والبكتريا وأكلت كبدتهم وأتلفت كليتهم ومزقت شرايينهم ومع ذلك ظلو يتمتعون بعيون صافية، ويخرجون للعمل مبتهجين ويغتسلون فى الصباح من مياه المحطة المتهالكة دون ان يربطوا ولو لمرة واحدة بين التقلصات التى تهرى بطونهم وبين برازهم الذين يشربون بقاياه.

منذ عدة شهور أصيب الناس بالكسل وأصبحوا لا يواظبون على التبول بترعة الرجال القبلية، بينما ظلت النساء يخرجن من المنازل تتبولن وتتبرزن فى الترعة البحرية، وفوجئت الإدارة عند وصول المياه للمحطة بان روائح براز وبول النساء هى فقط التى تصل للمحطة، فأصدروا مرسوماً بوقف عمل المحطة لعدم التزام رجال القرية بالتبرز بالترعة القبلية، وترك أطفالهم

يتبرزون بالشوارع، ومن وقتها انتشر العطش بالقرية، وأتلفت الإدارة المحطة المتهالكة، وردمت الترع والقنايات ولم يجد الفيروس أجساماً جديدة لينتشر فيها فانتشر فى الهواء ليسممه.

بعد أسبوعين من وقف عمل المحطة فرّ الناس للقرى المجاورة ليحصلوا على جركن مياه ملوث ليشربوه، واضطروا فى النهاية أن يشربوا مياه بولهم دون تحلية.

"مشرط الأذى"

هل يمكن أن نزيل الألم عن الأشخاص الذين آذيناهم، أيكفى التعويض.. أيكفى أن نهب حياتنا لهم كى نخفف آلامهم؟

أخرج مشرطه وشج وجهى وسار بعيداً وهو يردد "أنا مبضرش حد، ومخدتش حاجة غصباً عن حد، وودود، وبتفادى العنف، ومسالم، وراضٍ بحالى، وقابله بحب وقناعة، وعايش بأمان"

قلت له: أنت تخدع نفسك، وأشرت للدم النازف بوجهى بسبب مشرطه الذى شجنى به منذ لحظات، فقال: أنا لا أوذى أحداً، قلت: أنت لا تحس بالأذى، فكيف ستعرف آثار صمتك على الآخرين الذين لم تشعر بالامهم، قال: أنت تكذب لأنى طوال عمرى أساعد من حولى، ولا أتذكر مرة واحدة أن تضرر أحد من افعالي.

قلت: أنت لا تحس بمن تؤذيهم.. يجب عليك التوقف، وتقدم لمن يتألمون المساعدة فمساندتك وتذكرك لهم سيخفف آلامهم، قال: من هم هؤلاء الناس ، قلت: كل من حولك، كل من قطع وجهه مشرطك الذى لم يفارق نظرات عينيك أبداً، وحاول أن تعود مرة أخرى لتساند من أهنتهم وسلبتهم اختيارهم حتى يغفروا لك وتستطيع أن تستكمل حياتك بعيداً عنهم.

سألته بعد ان صمت: هل تقبل أن تعود لتساند الضحايا بتسامح وقناعة؟ فنظر الي بتعجب وأدخل مشرطه بعد غلقه فى جيبه وتركنى، ولم أره إلا بعد سنتين، كانت آثار جروحه لم تندمل، وحين رآنى استوقفني قائلا: ماذا حدث لهم؟ قلت: من تقصد؟

قال: الذين آذيتهم، فهل يكفى أن أعود وأساندهم كى تختفى الإشارات بوجوههم والتى مازالوا ودون إرادتهم يقومون بها فى عرض الطريق أمام المارة لرفضهم نسيان حبى الذى شج قلوبهم دون رحمة.

قلت: الجميع يرفض مساندتك ويطالب بمحاكمتك، قال: وماذا سيستفيدون من المحاكمة، هل ستخفف آلامهم؟.. هل ستفقد ذاكرتهم مشاهد الحب المفجعة التى ارتكبتها دون رحمة؟ هل إذا رأونى لن تتغير لون دمائهم المتسامحة لتنطلق من عيونهم الأحقاد والغل دون أن يتمكنا من إخفاء أملهم فى الانتقام.

قلت: أنت مجرم وتحمل مشرط الأذى وتستخدمه بوحشية وفى أوقات غير متوقعة وبطريقة غادرة لتطعن اقرب الناس إليك، قال: أنا أقوم بمساعدة الناس وأغير الدنيا للأفضل، أفعل ذلك لأعينهم على تجاوز الكره ليعيشوا بعالم مملوء بالحب.

قلت: يجب أن يتخلص العالم منك ،ففاجأنى بماره غير متوقعة بضربة مشرطه الذى فلق جبينى، والان كلما انظر للمرآة أو اكون وحدى أتحسس جراحى، وأتذكره بغضب وأكره نفسى لأنى تركته يعيش بعد شج جبينى وجرحى مئات المرات؟

"الحيرة"

ليلة الأمس فوجئت بها تعاشر أشخاصاً لم أتعرف أبداً على وجههم، كنت بالدور الثانى للمعهد المشترك الذى ندرس فيه أتلقى دروساً فى الحيرة بطريقة عملية.. كان السؤال الأساسى للمعلم.. كيف تطرح الأسئلة الصحيحة؟

حين انتهيت من الدرس الذى خلق داخلى أطراً جديدة، فوجئت بها تخرج من فصلها الدراسى بالدور الأول وهى تلاصقه، نظرت لعيونه، لكنى أبداً لم أتعرف على ملامحه، قلت: ماذا تفعلين، قالت: أتلقى دروساً فى الحيرة، اندهشت وقلت: إننى كنت أتلقى نفس الدرس فى الدور الثانى، كانوا يدربوننا بطريقة المشاعر المفقودة.

قالت: نحن نتدرب بطريقة حسابية، ماذا نخسر وماذا نكسب؟ كيف نواجه الخطر وحبك الطرق للاستيلاء على التراكم والإبداعات، قلت: هل تهم الإجابة على أسئلتهم لاستمرار علاقتنا، قالت: يجب أن نستفيد من الحيرة المنتشرة فى العالم.

صحوت من نومى، فوجئت بشقتى تملأها البهجة.. دخلت الحجرة الملاصقة لحجرتى فوجدت وردتاى نائمتين، أخاف عليهما من الأيام، أنظر إليهما كل يوم وأحس بالرضا.. لماذا تبهجنى رائحتهم، رزقنى الله بهم فى غفلة منى، أكبرهما تبلغ الثانية عشرة والثانية تتجاوز الثامنة بقليل، تتمايل إحداهما فتغير الأخرى وتنادى الهواء ليعطيها النسيم، لترد على البهجة بحب، أحس بالسعادة تملأ الوردة الصغيرة وهى تحكى عن أصدقاء المدرسة، وتتساءل عيون الكبيرة عن معنى هذا الحب رغم محاولتها المستمرة فى إظهار سعادتها.

اليوم أجلس وحيداًواستمع لحبيبتى وهى تعطينى دروس الحيرة والمشاعر المفقودة، وتسألنى: لماذا تصمت.. فأرد عليها بأنها يجب أن تسأل السؤال المنطقى الصحيح.. كى أجيبها بصدق.

ترغب أن تسنطقنى وهى تسير خلف شاب وسيم لم أتعرف عليه أبداً، وتتمنى أن أقول لها فى غل: حققى رغباتك فى الآخرين، فلن أقدم لكى شيئاً، لكنى أبداً لم أنطق هذا الكلام رغم أنها تحسه بمشاعرى.. لماذا ترغب فى نطقي لكلمة النهاية، لماذا لم تتمكن وحدها من إغلاق الباب وكتابة الكلمة المفجعة.

ألـم تكفهـا كـل دروس الحيـرة التـى تلقيناهـا طـوال السـنوات العشـر الماضـية، لمـاذا تحتـاج وبإصرار فقدى البوصلة والصراخ فيها دون حيرة.. كفاية.. لن أحتاجك مرة أخرى.. هل إجابتى المعلنة تمكنها من استعادة مشاعرها؟ حبيبتى التى تركتنى ليلة أول الأمس بعد ان فاض الكيل بها لأننى لا أقدم لها شيئاً ومع ذلك تصر على الاستمرار.

أيـة حيرة نعيش فيهـا.. ومن يجيبنـا علـى الأسئلة البسيطة التـى لا نجد لهـا إجابـة، ولمـاذا نستمر رغم علمنا بالمصير.

"الفارس المهزوم"

كنت أمر أمام بابهم بالقرية لأجدهم يعلقون صورة لم أتعرف عليها أبداً، كان جده يقول فى تحدٍ: إنها الصورة التى تعطينا الأمل.

كنت أسأله من يكون هذا الفارس الذى أتعبه القتال، فظهرت تجاعيد وجهه المملوءة قسوة على اللوحة مغروزة فى الوحل، كان يقول: إنها يعطينا الأمل.

أخرج من منزلهم الذى لأمارس هوايتى فى ملاطفة المارة.... أكلما سافرت تجرحنى ضلوعى... كانت هذه الكلمات التى كتبت تحت الصورة.

أتذكر منظر الجد وهو يقول:لا تسأل كثيراً أنظر إليه وتعلم، فهو عطوفاً علينا ويتمنى ألا تأخذنا الحياة لأبعد من حدود هذه القرية حتى لا نصاب بالجحود وتتلبد عواطفنا وتسود الدنيا أمامنا كألوان صورة فارسه.

اليوم أتذكر الفارس الذى يعطينا الأمل، فأصحو متسائلاً: ما الأمل الذى نستمده من لوحة؟ سألته هذا السؤال فقال: أن تتعلم وتعمل جيداً وتتزوج وتنجب أبناء صالحين وتموت مستوراً، كانت هذه الحكمة التى تطير من عين الفارس الذى عرفت بعد ذلك أن كل أهالى البلدة القديمة يضعون نفس الصورة بحجراتهم الضيقة ليتعلموا منها نفس المعنى، الأمل !!

ضجت الدنيا من حولى وتغير الحال وأصبحت موظفاً محترماً وتزوجت وأنجبت أولاداً صالحين كما يقولون، وعلى أن أنتظر الموت مستوراً.

ثلاثون عاماً وأنا أفنى جهدى فى توفير الخبز للأسرة، وأتقن عملى، وأبذل كل ما فى استطاعتى لإرضاء الجميع، أحاول أن أكون الشخص الودود الذى يحب الجميع ويوفر الأمان، من أعطى لى هذا الدور، وكيف أتقنته طوال الثلاثين عاماً... أكنت مستمتعاً بهذا الدور، أم ان صورة الفارس كانت دائماً فى مخيلتى ترشدنى وتحضنى على الاستمرا.

هل آمنت بنبوءة الشيخ واستلهمت حكمته، بضرورة ترك حياتنا تمر وإلا سيكون مصيرنا الانكسار، الذى تحسه فى أى بيت تدخله بمجرد أن تشاهد ملابس الأم وعيون الأب، وهم مستاءون من نظراتك البريئة، ويقولون فى صمت: المهم أن نموت مستورين .

بعد كل هذا العمر أقف وأتمنى العودة من هذا الطريق، لا أريد الموت مستوراً أو مفضوحاً، انتابتنى حالة من الفزع، فذهبت للمقهى فى البلدة التى لم تتغير كثيراً وبعد أن طلبت الشاى، قفزت مرة واحدة، وأنزلت صورة الفارس من على الحائط ورميتها بكل قوتى على الأرض، فجاء صاحب المقهى العجوز وبكى ولطم خدوده وجاء أبناؤه وأمسكوا برقبتى ليقتلونى، ولولا صراخى بكل قوتى ليتعرفوا علىَّ لكان دمى المهدر فارق روحى، لكنهم هدِأوا بعد أن عرفوا حكايتى فقمت من بينهم صارخاً بإصرار على تكسير صورته بكل المنازل والمقاهى والمحلات.

كنت أسألهم أين روح العزيمة لديكم؟ كيف تجعلون صورة كئيبة تتحكم فى حياتكم؟ ألا تستطيعون أن تقفزوا فوق الكراسى وكنب البيوت، لتقذفوا به فى الشوارع وتدوسوا عليه؟ كيف هانت عليكم روحكم لتجعلوا وهماً كئيباً على الحائط ينتشر ويتحكم فى مصيركم، كيف استطاع الفارس بكل سواده وهزيمته أن يلبسكم جميعاً قناع الخنوع؟ أين روحكم الحية التى كانت تملأ الدنيا براءة وحباً، قالوا فى صمت: إن صورته هى الأمل الباقى.

قلت فليذهب بأمله بعيداً، ليس فى انكسار الوانه إلا الحزن.

جلست بجوار الحائط أحدثهم عن قريتنا القديمة التى كانوا يملأونها بهجة، و يغطى أراضيها لون البرسيم الأزرق، ومياه ترعتها تنظفنا وتروينا وتغسل النساء فيها الأطباق والملابس، تركونى يشفقة وأنا أعدد محاسن قريتنا القديمة، فصرخت: هل نسيتم اشجار التوت والصفصاف؟ فنظروا إلىّ خائفين، وطلبوا الستر.

"مرارة التخلى"

الي احمد شرف

يلازمنى كطيف.. أبعد عنه فيطاردنى.. ويطلب منى الغفران.. أتجنبه فى الشوارع والمحاكم والقهاوى.. وأكذب على نفسى.. هل كان يبحث عنى.. أجده بداخلى، فأبعده، فينبش بالذاكرة.. هل كان هنا؟ هل مر على منذ دقيقة ولم ألمح إلا بدلته السوداء وهو يضحك.. هل عرفته من خطواته الواثقة؟

بيوت الحارة كانت تجمع شملنا.. يتسامر معنا آخر الليل يحكى ذكرياته عن أيام الجامعة بقوة وهو يفتح كفيه المشقوقين بعرق الغلابة والباحثين عن أمل، لكنه رحل فجأة ليتركنا وقد أهيل علينا التراب.. عندما رآنى آخر مرة قال: مش هتنفع.. أنت أبو النطيط.. أطلق أسماء كثيرة علىَّ استفزتنى، وهربت داخلى لأثبت له فى تحد أننى أشقى مع العمال فى الصباح وألبس ملابسهم فى المساء.. وأغيب مثلهم فى الأحلام المستحيلة.

كان يضحك ويقول ساخراً: برده أبو النطيط.. طوال عشرين عاما كان البطل يبحث عن بطولة ويهتف لظله ويتصور أنه سيطول السماء وسيرتفع بنا الى قمة عالية لأننا نستحقها، نحن المحرومين من تحقيق أحلام الحيارى والمدهوسين فى اليوميات التعيسة.

لن أنسى أبداً وجهه المفتوح بسكاكين البلطجية.. كان يحكى بقوة وهو يقف وحده وهم يحيطون به ليخيفوه وهم مسلحون بالسنج والشوم، لكنه رفض ان يتزحزح فشقوا وجهه نصفين، يحكى مثل الأمهات، سرح بنا هناك وقال وهو يتذكر السكين قبل أن تقترب من خده، لم أكن شجاعاً كنت خائفاً من عيونهم المتوحشة، لكنى لم أتزحزح، لكنه لم يقل أنه لم يفق إلا بمستشفى الجامعة والأطباء يحيطون به.. لم أكن أتصور أبداً أن أفقده.

يسهر الليالى يحكى عن العالم الواسع المزروع ببهجة النسمات الرطبة والإخاء والتضامن، كنا جميعاً مادة للتندر.. واطلق علينا أسماء مختلفة تصف ما بداخلنا كأنه يباركنا بسخريته.

لن أنسى جملته الشهيرة.. "المهم أننا نتراضى".. أسأله كيف؟ لكن المرض اللعين أخذه قبل أن يجيب، كيف فاجأته الأزمة ولم يتغلب عليها؟

فى غرفة الإنعاش، كان ينام اللحظات الأخيرة مرتاح البال يضحك منا وعلينا، كيف تركناه وحيداً باحثاً عن عدة جنيهات ليطعم أبناءه بها؟ كيف باغته الموت فجأة ولم يستطع التغلب عليه، كيف استطاع أن ينحنى للموت ليخطفه.

"الغربة"

مر ثلاثون عاماً على مقتل مدبولي وبدر العفيفى بحوض الشراقى، كانت البلدة يومها تلبس السواد بعد يقينها بأن القاتل الذى لا يملك إلا عيناً واحدة قد أفرغ فى قلبهما خزينتين من بندقيته الآلية.

فى هذا اليوم خرجت القرية لتستقبل جثث الرجلين اللذين كانا زينة البلد... لم يتساءل أحد يومها لماذا قتلهم الأعور دون رحمة؟ الجميع كان يعرف أنه القاتل، لكن أحداً لم يجرؤ أن يذكر اسمه لضابط المباحث الذى كان يعرف هو الآخر أنها جريمة الأعور.

الطريق الزراعى الملاصق للترعة يمتلئ بالبشر المفزوعين... كيف لرجلين لم يتعديا الأربعين من عمرهما أن تمتلأ قلوبهما بكل هذا الرصاص؟!

مر كل هذا الوقت دون أن ينسى أحد من الأهالى الباقين منظر النساء المتشحة بالسواد وهم يملأون الترعة القديمة التى أطلق عليها الاهالي بعد أحاطتها بالمبانى "شارع العروبة"، كان ذكر "مصرف الهنادوة" مقر الأعور ينبئ بالاغتيالات والجرائم وكنان نسير مرعوبين ونحن نمر بأرض المصرف خوفاً من ظهوره فيقذف الرصاص بقلوبنا وهو ينظف بندقيته الآلية.

اليوم اختفى المصرف بعد بناء الأبراج حوله وأطلقوا عليه "شارع القومية"، كيف استطاعت الطبيعة والسماء والأرض والبشر أن يتواطؤ ليخفى معالم بلدة كاملة كانت تتضح حقولهابالخضار وتستبدل البراح بالبيوت القاتمة وتعج شوارعها الضيقة الأن بأكوام الزبالة والروائح النتنة.

كيف أسافر وأعود لأجد البلدة التى كان يزرع أهلها الكرات والشبت والكسبرة والفل تحولت لمقلب للقمامة، أين ذهبت القنطرة الخشبية، أين أشجار الصفصاف والساسبان، هل أخفوها بمخازن بعيدة، هل اعثر عليها أن سألت شيوخ البلد أم أن الغفر أحرقوها ليتدفئوا بها فى ليل الشتاء البارد؟

أين ذهب عبد الحى القليوبى الذى كان يركب العربة الكارو مع والده أثناء نقله لعلف الفلاحين من مخازن الجمعية الزراعية... كان يخاوى الجن النساء العاقرات تتبارك بوجوده.

أين سيد العبيط الذى كان يلملم أوراق الجرائد والأكياس الفارغة لشاى الشيخ الشريب والمعسل الدفراوى، منذ عودتى لم أعثر عن أثره، هل قتله اخوته ليأخذوا ميراثه.

لم يكن يستحق هذه النهاية، وماذا فعلو بوجهه الطيب؟

هل أعود مرة ثانية لأنهم غيروا معالم الشوارع وأسماء الطرق، أم أنتظر لأستعيد أراضيها التى أعرفها حقل حقل... أريد تذوق طعم المشمش التى كانت تنتجه الأرض التى حولوها لمقاهٍ ومحلات للموبيلات.

هل يعقل أن تعود بعد ثلاثين عاماً لتجد بلدتك تحولت لبلدة أخرى لا تعرفها، هل سأعثر هنا على أحد يعرفنى؟ منذ شهرين وأنا أبحث عن أهلي البلدة وأقف أمام البيوت التى كانت تمتلئ بالدفء واسأل كل من أقابله: أين ستى أمينة الطعمجية وجدى شحات قطب العلاف ومغاورى المنادى وبيومى المنجد وسيد اللبان ومندوه القهوجى... ومن هؤلاء الرجال والنساء الجدد التى تمتلئ بهم الحوارى؟

"حقول المنازل"

ذكره بأسماء كل فلاحى البلدة وحدود حقولهم... لم يكن يصدق أنه يتذكر نوع بذورهم ومساحة حقولهم، لم ينس أن يحكى عن كل مزارع حكاية اشتركا سوياً فى أحداثها... هل كان يكفى أن يذكره بكل هذا الماضى كى يغفر له جبروته؟

لم يقبل اعتذاره وقال... بالأمس حلمت بك وأنت تصارع المياه التى أغرقت أراضينا... اتت المياه من خلف الحقل ثم نزلت بالقناية، لم أكن أعرف مصدرها، لكنها أغرقت أراضينا لدرجة أن الترعة التى كانت تمتلئ بزبالة السكان الجدد شقت من جديد وظهرت حقول الذرة والقمح فوق وبين المساكن المرتفعة.

كنت تنادى علىّ "يا فهمى تعالى كل التوت الحبشى"، والساقية تخرج مياهاً شفافة، والأراضى المزروعة برسيماً تمتد الي مالا نهاية، وحين أخرجت الأرض عمى ناديت: "استخبى يا فهمى... عمك هيشوفك"، كانت حقول البامية والملوخية والنعناع والحلبة مزدهرة حولنا فلم يشاهدنا واعتبرنا جزءاً من الزراعات.

احنار فى أمرى لأننى أقنعته بأن بناء البيوت على حقول البرسيم والنعناع هو المستقبل القادم، قال بحرقة: جعلتنا نتوسط بين الفلاحين والتجار لنبيع كل الأراضى للسكان الجدد ليقيموا المنازل العالية وكسبنا الأموال، وأنهى حديثه يلومنى: أتأتى اليوم لتدلل على قيامنا بعمل وحشى لأننا أهدرنا نسمة هواء نظيفة فى حياتنا ومشهداً مفقوداً للبراح.

يستاء منى وأنا أحاول وقف طموحاته المتزايدة بالتوسط لبيع المزيد من الأراضى وخداع الفلاحين، فيقول أتستطيع أن تنزع ثلاثين عاماً من قلبى دون جرحى، كيف سننسى الحيل التى حبكناها على الفلاحين كى يؤمنوا بأن حقائب النقود أهم من الحياة؟

خر باكياً حين ذكرته بصراعه مع إخوته لوقف هدم المنزل القديم لأن رائحة أمه كانت مازالت عالقة بجدرانه، كان إخوته لا يفهمون لغتنا، وقالوا المنزل سنقيم مكانه الشقق ونبيعها للأغراب ونبنى مقهى ومحلاً للألبان ونلبس الجلاليب البيضاء ونستمتع بمرور النساء اللاتى تعرى شعورهن وتضع الألوان على وجوههن.

كنا نقول لإخوته إلا المنزل... فمازالت رائحة الأم تملأه، معركتنا الأخيرة كانت منع الغل من الانتشار واستطعنا أن نتحدث مع كل الجيران عن المعانى المفقودة، الاتتذكر.

تركنى وسار بعيداً دون وداع كأنه لم يسمعنى مندمجا مع أحد المارة لارشاده عن موقع قطعة أرض زراعية يرغب فى شرائها ليقيم مكانها منزلةً.... فاجأنى حين عاد قائلا: إنه يستمتع بهذه المهنة... فهى الأمل الباقى والمستقبل المنشود.

"الإخلاص"

أريدها أن تمشى لنهاية الممر سعيدة بأحلامى، وأن تتصور أنها امتلكت زمام نفسها، لتعلن لكل البشر سر علاقتنا.

اليوم اجتازت الحواجز ووصلت للنهاية ورفضت الإعلان عن حبها بعد تيقنها بأننى سأنكرها... أى قسوة استقبلت بها قبحك ايه الجلاد؟

قبل أكتشافها خديعتك كانت تقول لكل من تقابله أننى حبي... اختيارى... كان الجميع يقولون: أنت مجنونة لن يعترف بك، أنت بالنسبة له مجرد عاهرة... كانت مؤمنة بأنه لن ينكرها أبداً... فأعطت له كل شئ وأخلصت لدرجة أنه نفسه لم يصدق كل هذا العطاء... فهو الذى يشك بكل الناس وثق بإخلاصها.

فى اليوم الذى أنكرها اعترف بأن فضلها كبير ولا يمكن إغفاله، كأنه كان يقول: ليس لك فضل علىّ، ففى اليوم الذى تعترف بالفضل لأحد عليك يضيع معنى فضله، كانت تقول... بتشكرنى... ده أنت حبيبى.

لم تهتم لانتحار أبيها بسبب إيمانها اللامحدود بمحبوبها والذى كان يعلم أنه أبداً لن يعلن عن حبها، الشئ المحير أنها بعد أن تزوجت قالت لزوجها لى محبوب آخر أخلصت له وآمنت به وعلى استعداد لمواصلة المتبقى من عمري معه لو أشار بطرف أصابعه وكان اعترافها سبباً فى طلاقها.

الجميع تساءل أى فضل له عليها يجعلها تدفع هذا الثمن الغالى من عمرها، لكنها تقول بفخر: نعم أحبه وأعاشره حتى الصباح.

أنكرها، وانتابتها حالة من الجنون، فى آخر مقابلة قالت له: "لماذا أخذت قلبى وسرقت مفتاح عشقنا، كيف استأمنتك على نفسي وخفت انت على الفرش وحلل المطبخ، كيف يمكن مقارنة قلبى الذى وهبته لك وآمن بك بالحيطان والسجاد؟ "

كانت ترغب بأن تصرخ فى العالم المحيط "هذا حبيبى وأعشقه وأؤمن به ومات أبى وطلقنى زوجى بسببه" ومع ذلك مازال ينكرنى... فأى عدل بتلك الحياة.

هزائم اخري صالحة للنشر

"١"

"ذكريات مؤلمة"

فى يوم حزين، تهبط الفراشات على زرع الحقول، تخطف البذرة وتمص الرحيق، وتئن، تخنق الأرض ثمار البطاطا، وتعض جذور الطماطم، تهرب الثعابين من جحورها وتتلقفها يد الحاوى، وتخنق صوت البلابل وتذوب حقول القمح.

فى ذكرى مؤلمة، تلقفتنى يدى، وأخذتنى لتضع حوافر المهر على بطنى، كانت المسامير تدق فى عظامى، لتلتحم بجسمى شظايا البرد، وتختبر مقدرتى على الكتمان، كان صوت عظامى يخرج، بينما وجهها مازال يبتسم، يحرق الإحساس بالموت والزمن الكئيب.

أتذكر بعد أن عادت إلىّ بشعرها المنكوش، كان يوم ظهيرة وتراب، وكانت الترعة تجف، خرجت إلىَّ تنادينى، كانت أسنانها كالمحجر، وكسارات الرخام تفتت عظامى، والشرر المتطاير من فوق أبراج الحمام، يعطى للكهرباء معانى جديدة مثل الظلام.

فى هذا اليوم صافحتنى... كانت الحية طويلة مثل أقدام الحنش، كانت البطة ثمينة مثل أبقار الفريزين، قالت، لماذا جئت؟ كانت الأنهار بعيدة، والمخلفات على دكك المقاعد مرسومة على وشم المخاصر، كانت تجاعيد نهديها مثل صدر الحية، حاولت أن تختبرنى بجوار الحمام، فقبلتنى... خرجت روائح كريهة ذكرتنى بقسوتها.. آلمتنى، وأفقدتنى قدرتى على الانتصاب، وجفت دموعى.

ومع ذلك خرجنا للحقول نزرع الماضى، ونحصد غل الجيران، كانت التجاعيد تملأ وجه الحب، وتملأنى بزكايب من الأزهار، انكفأت، وحاصرتنى، رفعت طوق ملاءتها، ومالت، والتصقت بصدرى، كان بين فخذيها فحماً لاسواد، وضعت يدى ببلاهة الحاوى، فاحترقت.

أتذكر أنها ودعتنى، وتركت الأبواب مفتوحة، نزلت من خلف جفونى، ارتعشت ، بحثت عن زهوتها، عن حقيبتها، كانت روائح كريهة فى نهاية العربة، تذكرنى بسفالتها، فهل تركتنى أم ستعود.

منذ ساعتين مالت واستدارت، وظهر نصف وجهها... نصف أسنانها، فبحثت عن نصفى الجنوبى، فعرتنى، لممت بقايا كائن حى، سمعت أصوات توبيخها، كان الحاضرون مبتهجين، أحسست بالبرد فى حلقى، فنظرت إلى الطاولة، وجدت ملابسى كاملة يتبول عليها الجميع، صرخت من حلقومى الجاف، غطونى، مالوا مرة واحدة على وجهى، وبصقوا فى عيونى.

فى ذكرى حزينة كهذا اليوم، مات جدى واقفاً شامخاً كأشجار الأرنح، لم يعد يتذكرنى إلا قليلا، كان وجهه وجه فلاح ندى، يرفع الفأس فى وجه الزمن ويحاول، كم مرة حاولت يا جدى؟ تسعون عاما وأنت تحاول، تسعون عاماً مرت، وأنت تعاند النخيل والصبار، وتحافظ على رائحة عرقك، كم مرة تهرب منى، وتشفع لجهلى؟ أكنت تحبنى، أم تكره نفسك؟ حينما تحكى عن ذكرى أيامك السوداء، والدماء تملأ الحارة والمناقز فوق رءوس الأهل والجيران، تبحث عن دم جديد، فى ذكرى بليدة كتلك البلادة، هل يمكن أن تأتى لتساعدنى؟

كم يوماً مر كهذا اليوم ، كم عمراً مر كهذا العمر، كم حرفاً... كلمة... قبلة... أتذكرها... لا تتذكر... جسد قبيح كوجه الخنفساء، يتمايل بالحروف، وتخرج الدال خاءاً... ويصرخ من أعماقه.. لماذا جئت، حاولت مرة أخرى أن أبعدها عنى... كان الشباك والتليفون والباب والسجاد وأقلام المكتب تستهزئ بىّ، فوجئت بخروج ثديها كاملاً هذه المرة أمام الجميع، كان الطعام فوق الطاولات، يذكرنى بيوم كئيب طويل لا يريد أن ينتهى.

"٢"

"قلبى والحصار"

ما الذى جعل حبيبتى تتركنى عند بداية الطريق؟ هل قلبى، أم جثث الأهل والكلام الذى لا ينتهى عن الرزق والعيش مستوراً، أى حكمة أن تتركي الشوارع دون وداع.

حين شج فمى بالسكين، سألته: ما الذى يجمع بين انهيار البيت واستسلامى، بين تفكك الشرايين، ومطالبة أخى بحقوقى عليه، ويجعل الأب يرفع السكين فى وجهى، ويطردنى من منزله، وهو يعلم أنى لا أملك مليماً واحداً فى جيبى؟

كانت زوجتى تعانقنى عند الصباح... كانت تعانقنى وتبكى وتقول: قتلت فى الأحلام عصفوراً صغيراً، بكى ابنى الصغير، وقال أين عصفورى؟ لقد رأيته أمام الباب مقتولاً.

فى طريقى لعملى، قابلت أبى، نظر إلىَّ بغضب، ومال على الأرض، وأمسك مداسه، وعاصه فى خراء البهائم ، ووضعه فى فمى ، وقال انتظر نقودى حين أموت ، هربت منه ... فصرخ : أحتاج كيساً من الفضة لأملأ لإخواتك البيت بالزيت المشبع بدم الأصدقاء وثمن الخيانة .

أهى صدفة أن تمر من فوق سريرى طائرات العدو، وأخى مرابض خلف البيت ينتظر نزولى من حجرتى ليقتلنى؟ أهى صدفة أن تمسك امرأتى برقبتى فى الصباح دون أسباب، وتظل أكثر من ساعتين تضربنى، وأن يطالبنى صديقى بالأمانة التى ظللت أحميها طوال العمر؟ ما الذى يجمع بين حزن أمى وعرق أبى، وكراهية الناس؟ ما الذى يجمع بين موت عصفور أمام البيت وخنق أحلامى؟

قالت حبيبتى التى تركتنى دون وداع أمام محطة الباص: إنه وهج الانتحار، وأنت تقف على ضفة النهر هزيلاً... تحاول فك الحصار، ولا تدرى بأن الحصار صانعه أنت، وأحلامك الوردية بالهزيمة.

أسألها: ما الذى يجمع بين عصفور طليق وبين سجنى... وبين الطائرات التى تغتال أحلام الناس وبين حيرتى، ما الذى يجمعهم؟

قالت فى سخرية: لانك ضيقت مساحة الباب... ووسعت الشريان للثعبان، وفتحت شبابيك المحبة للأعداء، فلابد أن يحاصروا قلبك ويقتلوك.

من أين يأتيك المسدس والطلقات... ونواح الأمهات وذل الهزيمة مازال يقتلك؟ من أين يأتيك الصبر على كل البلاوى، أتعاند الأشجار والقلب المزين بالحياة من أجل سنبلة يتيمة، قاتلها حياد الناس ومهانة الحكام؟ من أين تأتيك العزيمة كل صباح لتبتدئ يوماً جديداً، فتركب العربة، وتذهب إلى هناك للخناس والتجار... وتبحث فى ثناياهم عن ذل اللئيم، وتنتظر أن تأتى، فهل تأتى؟

كانت أغانينا فى الصباح، كانت البهجة وبكارة المولود، وعشق الفرح فى أمسيات الحزن، أخائف أنت من المجهول، فتتحدث عن الأبطال والتاريخ المزين بالهزيمة، من أين تأتيك الارادة لتبتدئ يوماً جديداً مفعماً بأحداث رتيبة.

مرة أخرى أسألهم، ما الذى يجمع بين سقوط أوراق الشجر وطلقات البنادق وتدمير البيوت وانكسارى؟ وحينما عاودت السؤال وهم صامتون، تذكرت بأننى شاهد على صباحهم الذي يبدأ بهتاف الصغار: تحيا بلادى... بلاد التلوث والفقر والخيانه ،وعند الظهيرة تأتى العساكر وبلاهة الأطفال تلمع فى عيون الكل، ليجرحوك وأنت ملقى فى الطريق، ويأخذونك إلى القسم وقد أعيتهم أياديهم من ضربك وجرحك فى كل ما تملك من كرامة، ويأتى الليل منتظراً إجابات عن جرائم هى حقك الشرعى فى أن تقول لهم الآن لا، لن أستمر.

كانوا يبحثون فى قلبك عن دفتر الذكريات... ويسألونك فى بلاهة، لماذا مشيت؟لماذا تبولت دون أن تمر علينا؟ لماذا حلمت بالأشجار؟ وحين قلت لهم أن العصافير قتلت فى أحلامى، صفقوا للحلم وباركوك، وترددوا فى وصمك... أنت المسالم فى خلايا الجسم، وبحثوا عن ضفيرتها فى جيوبك، واتهموك ليشفوا غليلهم فى عجزك المستحيل، وأنت الواقف المصلوب خائف من هزيمتهم عليك، خائف من مهانتهم إليك وأرزاقهم لديك، وهم يمسكون المعصم الخلفى ويفتحون شرايينك، لتقترن بجرائم أقل ما توصف بأنها حقوقك فى أن تقول لهم الآن لا.

ويهربون كالثعابين فى بيوت السحالى، ويهتفون، ويرفعون شعورهم خلف ذقونهم، ويأمرون الجند باجتياحك، والطائرات بضربك وعساكر المعبد بجلدك، وأنت واقف لا تدلل إلا على انكسارى، وهم يشمتون فيك ويخذلونك... أكانوا سعداء بذل الشماتة، وقلب العصافير الذبيح، وكأن جروحك فى معارك الأعداء وسام على صدر الأصدقاء، وأنت فى وسط المعارك تفقد البوصلة وتحاول أن تختصر الطريق لتقول للأعداء الآن لا، لن أستمر.

وتقودني من منفاك إلى منفىّ، لتسأل الأحزان قلبك، أهي صدفة أن يموت أمام البيت كلب جيراني، وأن يظل صديقي يطاردني ليثبت لقلبه الجريح أنه رجل مقاوم، ليثبت أخي لصديقه الخائن بأنني عاندت أمي، ويقذف أبي في وجهي سم التشفي في عقوق الوالدين، ويحتفل كل أبناء الحي بسقوطي.

في مشهد أخير... يظهر الساقطون مدججون بالسلاح ليعلنوا للأعداء أنهم أبطال، وتذوب في فم الخليج بيوتهم، وتضيع في كيما التلوث والهزيمة معاني الحياة والضحكة الصافية.

سألت نفسي، أهي صدفة أن تأتي كل هذه المشاهد مرة واحدة وأنا عاجز عن توديع حبيبتي التي كانت تلازمني قرب البحر مثل الفراشة، وأنا بعجز الأهل أترنح هزيلاً، وأرتمي وحيداً على أرض الحديقة، ثقيل قلبي وشراييني، كانت أثقال من الأطنان والعجز تمنعني من ملاحقة البيوت.

كانت تناديني لأصحو، وأستقبل العيد ببكارة الصبح المندى بالحياة، لكن انكسار البلاد يلازم الحزن فوق أكفان الصبايا، والبيوت التي هدمتها عساكر السلطان تمنعني من استنشاق الهواء الحر.

في المشهد الأخير، كنت أقول لها: أكلما نظرت في وجهك رأيت هزيمتي، وأنت الزهرة الملتاعة بنبض الحياة، أكلما سافرت إلى بلاد لأبحث عن عبير ينسف الأسماء والأوصاف والأرض، أجدكي، أكلما سافرت تلازمني أحزاني وتجبرني على ترك الحياة ونسيان الوداع.

"٣"

"موانى بعيدة"

دلفه الجامع المفتوح على ترعة بعيدة تناديني، كانت تجاورني كفراغ انتهى، كمدينة تائهة تذبل شيئاً فشيئاً.

كان العطش وشقوق الأرض وزهره البرسيم الناشفة والمارد المكبوت بكل أنواع الشرور يتبعني، وهى تحاول للمرة الألف أن تلصم الأرض، وأن تعيد التوازن المفقود، وتبحث وسط البيوت والحروف والموانى عن معني... وتندهش منها الحوارى وأفران النساء ودكك القهاوى، وهى تحاول أن تعيد الاسم الى لوحة مفقودة ، وتجبر الأرض كى تلين.

هيأت لك الحروف وامتلاك العيون العسلية أن بإمكانك غسل شعور النساء، وتبديل نهودهم بشجرة الرمان، وأن قلبك الخاوى يمكنه عصر الحيطان لتخرج من ثنياها بذور ماتت، وكراسات مُلئت كتابة بدموع النساء العاريات الباحثات عن وطن وأرض وعشق.

هيأت لك المدينة التى تغتال الرجال وسط النهار، أن بإمكانك أن تأخذ كراريس الرسم المملوءة بأحلام الصبايا وتم، لتلحق بأخواتك وهم يوجوهونك بقسوة التاريخ وماضيك الملطخ، وأنت تلملم بقايا الهزائم، وتبحث فى أكوام الزبالة عن الأحلام االمدفونة لتعيد للأرض دورانها، لكن الأرض أقوى من دفق المياه ومن عناقيد العنب، فتهوى بأسلحتك الضعيفة فى التراب، لتغتال البراءة وبكارة الأسماء.

كانت حياتى معكى كبسمة على الوجه الملئ بالتجاعيد والصور الملونة، وأنت تبكين المدينة ، وتلقى بالماضى الكئيب فى البئر المجفف ، ليسرح الدم فى عروقى كقناية للحقل، أو ترسمى صورة لشخص أعيته الدموع، عشرون عاماً وأنت تفشل فى ملء الفراغ، وتبحث عن بلح النخيل، وبحر بلا شطآن، وشخص بلا ذاكرة، وماضٍ بلا أحداث.

عشرون عاماً وأنت تحاول وتندهش حين تأتيك الفجيعة... أكل خيول الأرض مهزومة، أكل زهور الورد ذابلة، أكل الطيور والصحاب والمعانى نبيلة... أكل غصون البرتقال مغشوشة؟ وتندهش حين تأتيك الفجيعة، لتبحث فى حروفك عن اسمك، عن كذب لصدقك وعن صدق لكذبك.

عشرون عاماً، وأنت تسير وسط البيوت تبحث عن براءتها، وتعتقد أنها خلف شباك بعيد تقف هناك وتنتظر، فتقترب وتقترب من نور غرفتها وتحط هناك، وتصرخ فى الملاك الحر، وتندهش.

هيأت لك المدينة فى وسط النهار أن بإمكانك أن تزرع الأرض، وتحصد الخير الوفير، وتبنى البيوت، وتسكن فى الشقوق، وتنام هارباً من أحذيتهم الثقيلة.

وتصورت أنك تمتلك كل الحروف لتصيغ الفراغ، وتعزف الألحان، وتبدأ بالنشيد وتعيد المد والجزر، وتندد بالحروف الصدئة، وتبدل اللوحة والمقعد وواجهة الباب، وتندهش حين تنظر إليها من خلف شباك صنعته يداك، تندهش من براءتها وصفحتها العامرة.

تندهش حين تحيطك العصافير الميتة التى تملأ مدخل البيت، متجاهلاً بقايا الدم فى ملابسك ، وتتغابى على قلبك الخاوى، لتصرخ فى الفراغ البعيد، ليأتى الربيع المتأخر، والشجر المزهر بعنب الديب وبلح الشام، لكن أحد لا يكن يسمعك، فتعيد البحث عن الحروف، لتعلن لبقاياك بأن عصفورك الملقى خلف شباك بعيد اغتيل في الصباح.

تتمرر الدنيا من جديد، وتتبلد فى الطرقات مشاعرك، بين حمام البيت وبلكون المكتب تضيع المعانى، وتقذف زوجتك بأوانٍ خاوية فى شوارع مليئة بالحواديت المملة، وتناديها لتبحث معك عن طائر بلا أجنحة وعصفور ميت وبطولة زائفة، وكذب مصدق، لكنها أبدًا لن تسمعك.

وتمر أعوام وأعوام وشجر البرتقال الحزين يئن من جهلك ومن ضعفك، ويمتحن فيك الربيع آخر الأزهار، لتبتلع المدينة فى وسط النهار أحلام القهاوى والمحلات الفقيرة، وأنت مازلت تبحث من جديد فى وسط الغرف عن عيون العصافير وقلوب الحيارى.

"٤"

"الكذاب"

مرة واحدة سكبت علي نفسي كل الرصاص والسواد.

كنت أوهم نفسي أنني أنظف الشوارع، ويوماً بعد يوم فوجئت بالتلوث يدخل خياشيمى، حاولت أن أحدثها.. أين أنتِ؟

كنت أتلمس طريقاً للخروج، فداست أقدامي كل البراءة... حاولت مرة أخرى، كانت أكوام الزبالة ثقيلة، فبحثت بداخلي عن شيء تاه مني ومنها، سألت أصدقائى، أين صوتها المبحوح، أين الطيور التي تحلق في المطر؟

تجاهلونى، فأوهمت نفسي مرة أخرى أننى أحاول تنظيف الشوارع.

كان ابنى يقف وراءى ينادي، يا أبي أين أنت؟ لم أرد، وطرت إليها بروح أخرى مبتكرة من كذبي، كانت هناك علي شجرة وارفة تعشق الأغصان ، وتتلمس التفاح.

لماذا طارت هناك؟ لماذا قررت الخروج وحدها؟ كانت بقايا العمر تبحث عني... علها تجد بعض ما ضاع مني.

كانت بقايا العمر تلملم نفسها، وتوهمنى بقدرتها على وجودى هناك، كانت أكوام الزبالة التي جمعتها حولى تستجير، والرائحة تزكم الأنوف، وكنت وحدي.. ألملم المتبقي وأبحث عن طائر بين النسيج ليضع لعمري المغدور نهاية.

فمن يساعدني في الظلام عن نو عيني، ويجعلني أنظر بعيداً كي أراكي.

بحثت في صمت القبور، ولم أجدك، وسألني ابني: أين أنت؟ لم أرد وسألتها: كيف استطعتي أن تطيري بعيداً... وأن تغردى فوق أشجارى وتتركيني؟ أأشرب الصبار والقلب المقدس، وام أحلم بموت القمر؟

حين انتظرتك آخر الليل، ولم تأتِ شعرت أني انتميت إلي ظلامي، فبادرت كي أخفف وطأتي، وأكمل رحلتي، وأنتِ ترتعشين برداً وخوفاً، كان قلبي المسكون بالحب يتقد، ويعلم أن دفئك أقوي من ظلامي، وأن خدودك البيضاء تضع نهاية المكشوف للمرضي، كي يعيدوا البكاء للبحر، وكنت وحدي أبحث عنكِ بسلة المهملات، وأبتز الغلابة لأدلل علي أن الموت أقوي من شراييني، وأن الحياة يمكن أن تعطيني.

"٥"

"الحزن الذى لمحته بين عينها "

كانت تسير كالملاك، وتشكل معي وردة للصبح، وتلتقط العيون من النسيم والبحر، لكنى كنت أركز كل جهودي لإفشال بهجتها.

حين أكون هناك أملأ الحجرة بالتوحش، فتتركني مشفقة وتسألنى.. لماذا يبحث الماضي عنا فى ذكريات منتهية؟

الشئ المزعج أنه أتانى ليهذى من جديد، وظل يصرخ لأتوقف عن جرائمى ويقول: أتلملم المتبقي من العمر، لتثبت أن عيون السهارى المملوءة بالحب تعيش في حجرات مظلمة، لتثبت لنفسك أن وجودك الطبيعي سوف يفرز صبحاً مغطي بالجليد، صبحًا يخلقنى من جديد.

صبح نسيته هناك في براكين القمامة التي لملمتها طول الرحلة، وبيوت العذارى التي ملأت حياتهم بهجة... ثم غادرت كي يبحثو عنك في مناديل الصباح، وتوكة البنت، وحين يعثرون عليك محملاً بأطنان القمامة، يستحيل عليهم العمر، ويضيع الأمل فى إحساسك الميت، ولا يبقي في النهاية إلا الحزن الذي لمحته حول عينها.

كيف تركت بابك المفتوح للأحزان يمشي بطيئاً ليغدر باحلامها، كانت تقف ورائى لتثبت بقدراتها الفائقة عدم الثقة، وأنا أتقدم إماما وهى تدلل علي جهلى، فأساعدها كي تهرب بعيداً لأتسلل ليلاً أبحث بين أبنائي المحرومين عن نظرة واحدة تعطيني القدرة علي السعادة، لكن عيونهم المغلقة كانت تحلم بقدر ضئيل من الحرية، وإنا أخاصمهم... أعاتبهم... كيف استطاعوا النوم في غيابي... وأطالبهم بأن يناموا هنا بجواري في شارع ليس له ظل أو حدود أو نهاية، أطالبهم بالبحث عن معني الأشياء التي حرمتني منها.

كانت تضحك وهي تقف بعيداً علي فرع شجرة وارفة تلعب النرد، وأنا أعاتبها لأنها استطاعت أن تهرب وتعدم كل الثقة، وأبحث مرة أخرى عنها في بئر بعيدة، ليسحب مني كل الحقد والغل والسواد، ويرميه بعيداً... أو يحرقه للأبد.

"٦"

"دعونى لوحدى"

دعوني أرتب معكم كل الرفوف وأمسح دموعي، أنظم معكم أثاث البيوت وخبز الصبح وشاي المساء، وألمس أيادي البكارة لديكم، وأشرب كؤوس العرق النظيف، وأحصد معكم قمح الشتاء.

دعونى ألملم شجر الجذور، وأطهر معكم قناة الحقول، لتجري مياه الخريف عليكم، وتفتح مسام الهواء ليوم جديد، دعوني أنظر معكم لحوض الذرة، ليحرس فينا بذور الشقاء، وحب العطاء.

دعوني هنا وامشوا هناك... لأجيال لم تمسسها يدى، لبراعم لم تطلها نظرة تشفي، أو فرحة فشل، دعوني ارحل من هنا، فنحن زرعنا الورود وحصدنا الهزيمة، فخذوني هناك واتركوهم هنا، لأفتح عيوني مرة أخري لهذا الربيع.

***

أيمكن للبوصلة أن تكون طريق الخلاص، وكيف تعرف أمي أن قلبي المخدوع سوف يشفى من حليبها المغشوش.

كنت أنظر من خلف شباكى إليكي، وأقايض عمري عليكي، وأعطي رموز البيوت لعيونك البنية لأسير شجراً وزيوتناً.

كنتى بمنازل الفقراء تمشين معى، وتغضبين حين أحتاجك، وتنتظرين الصباح، عشرون عاماً ترفضين وتعملين في صمت، وترمي بكل الخطط في معاركي الخاسرة، وتعاندين الصبح وتلعنى الدنيا وتحولين النور في الظلمات... وتتساءلين أكان هنا؟ وتستيقظين بالفجر لتحصدي الإسفلت، ويأتي الغباء في المساء ليسرقه، وتعترفين بأنه كان هنا، يلاطف البحر، ويعترف أن حبيبته التي ضحي بها سوف تشتاقه خلف الزمان، وأنتِ تقذفين بالمال والأوراق والبيوت الفارغة فى بئر حرمانك.

دعوني أنظر عليها في مشهد الوداع نظرة أخيرة، لأنسي نن عينها، دعونى أنام وحيداً لأحلم بوجه الشمس في هذا الظلام.

"٧"

"الرهينة"

كانت السحب البعيدة تناديني، لأختفى، فزادت الغيوم، وأشرقت الشمس في الحوارى، وامتلأت المباني بالورد.

كانت هناك على شاطئ البحر تناديني، وتأخذ من قلبي الصباح، وتفك يدي من خلف أزهارى وتجرى مع الموج، وتنتظر خلف طواحين الهواء، وتصرخ علي عقلي المحروق كى ينفجر، لكن الرياح العاتية تمنع وصول الرسائل.

أكلما سافرت طارت بعيدا، أكلما بحثت عنها طاردتني، هل أنت أسيرتي أم قيودي... هل أنت الماضي الكئيب أم المستقبل المزهر؟ احين أبلل عناقيد العنب تخطفين الوردة، وحين أهددك بالماضي تهربين.

كانت امرأة عنيدة تأخذ الأسفلت مني وتهرب من شرياني.

أتذكرين الفرح حين غنى ياسين التهامى والخضرة الشريفة... أين أنت الآن؟

أين إبراهيم بليله حين غرد بالليل، يا نايم أصحى؟ هل تتذكرين الحمار الذكر حين هرب مع العصافير ونام وحيداً بالجرن، والجاموسة " الناطحة " التي لم تكن تلين إلا لك وحدك؟ هل تتذكرين قلوب العذارى وانهيار الأفئدة واغتراب الفجر؟

أكلما غامرت في سفر بعيد تأتي ورائى... أكلما حاولت أن أتقرب منك تختفى وتنسينى.

كانت تلاطفني كعيون البقر الناعسة، وتغازلني كأنثى كاملة، وحين انهار جسدها حلت قيودى، وعند انتهاء يوم السوق غادرتني وغربت عن عيوني.

أحين أبوس أقدامك تعلنين رفضى، وتفضحين قلبي ؟ لتقولى لهم جميعاً أنني أسيرك.

نظرت إليَّ مستغربة من عتابى الذى لم تفهمه، وطلبت منى الرحيل، لأنها اليوم فقط تعترف بكل مشاعرها بأنها لم تكن المرأة التى حكيت عنها.

"٧"

"منعت البلابل من الغناء فأنتحر"

كانوا يحيطون به، ويملأون الغرف بأصواتهم المبهجة، وفجأة هرب منهم، ونادى فى الفضاء بعد أن ظل عشرين عاماً يظللون عليه وهو يعربد ويزرع الخوف على الجدران، ويناضل فى الرماد المر، ويعتقد أن البيوت الميتة تغتال البنفسج.

كان قانعاً بالهزيمة، فيخرج من انكسار الى انكسار، ويغنى للضياع، ويعتقد أن البطولة فى مجده الشخصى، ويرتعد من كونه البطل المزيف.

كان حصاناً فى بيوت العرب، ضربه الفرسان كانت قبضته، وعيونه فى شرايين الخيانة تنتظر المنادى، كان يمشى مثل نسر، ويجرى خلف الزكايب يحتضر، كان ملح البحر يغنى، وينادى على سفن المعز ليعتقوه، أحينما اعتقوله أخذوا من دمه الشجاعة ومن عيونه النور؟

كان أبى يبكى ويقفز مثل قط فى الحديقة، وينتظر ليعلن أن بقلبى جسارة ، فذكروه بانكسارك فى المدن البعيدة ، فبادر بالسؤال عن الطبيعة المقلقة للقلب ،والمدن النائمة التي تلعب مع التجار لعبة القسمة وطرح البحر.. وكنت معى تواجه نفسك بكل هذا الانحطاط لتعلن لهم.. ولأمك.. وجدك، ولحسن مسعود ومحجوب البخ، أنك ابن الطهارة الذى منعت البلابل من الغناء، فانتحر أبوك غير مصدق أن ابنه البرئ يمكنه قتل العصافير.

هل كان كذباً حين دافعوا عن جسارتك، هل كان كذباً حين اغتالوا فيك الطفولة.. هل كان زوراً حين قهرك الخوف ووضع رأسك بوحل القناية، وأمسك رقبتك ولوى عنق الحية، وأجبرك على ترك المياه تسير من أمام حقلكم الى غيطه البعيد، وأنت واقف بذل الانكسار وصمت الجماهير بالتجاهل.

هل كان زوراً حين افترسك الخوف وأنت تواجه عيون قطاع الطرق؟ لتعلن أن البطولة هى النذالة، وحين أرادت الأمواج أن تمشى مع التيار، انبهرت واقتربت من فريستك البريئة.. وانتظرت لتعلن بسيف الغدر أنك أقوى من فرحتها.. وأنت الذى منعتنا جميعاً من الغناء.

كنت قد سلمت رقبته للكلاب، ليعضوا فيها طوال الليل، كان منحطاً بالرغم من قيامه بدور النبيل، وأنت الجسور المزيف تقوم بدور الحمل الوديع والذئب النازف من ملابسهم يغرق فى عيونك.

كيف تلوث فمك بدم الخيانة لتعلن لباقى الناس أنك خضت المعارك بعيداً عن قهر الأصدقاء وموت الأبرياء.. لتعلن لأبنائك أنك البطل المزيف؟

كان نبيلاً حين مات، لأنه بقرار موته، أفجعك، فهو قادر على أن يخطو الى الموت دون رجعة، ليأخذ منك حق الأصدقاء والضعفاء.

هل يشفيك أن تكتفى ببكائنا، وتقف فى ملابسك الرثة تنتظر فريسة جديدة، لتغرس فيها كل ما ارتكبوه فيك، وتذكر لها مشهد الحزن المذل وانت تأخذ حقك من شرابيني، وتعلن فى النهاية لأبنائك بأنهم باعوك وأنت المشبع بدم الخيانة.

الوراق ٢٠١٠